

الأميرة فاطمة الزهراء
سفيرة محمد علي وعباس الأول بالأستانة
"دراسة وثائقية"

د. سلوى إبراهيم محمد العطار *

ملخص

الأميرة فاطمة الزهراء هي ابنة محمد عارف باشا، وزوجة إسماعيل كامل بن محمد علي، فاتح السودان، وكانت بمثابة السفيرة لكل من محمد علي، وعباس باشا الأول، حفيد محمد علي، حيث أوكل إليها مهمة التأثير في قرارات السلطان العثماني، وحكومته لخدمة مصالحهما.

وقد أجادت الأميرة هذا الدور، بالإضافة إلى مدها لعباس بكافة الأخبار المتعلقة بالتعيينات، والفرمانات، ومخاطباتها إليه لمعرفة موقفه من التنظيمات الخيرية، ومشروع سكة حديد القاهرة الإسكندرية والقاهرة السويس .

وللأميرة فاطمة الزهراء مجموعة من الخطابات المحفوظة في دار الوثائق التي تم ترجمتها إلى العربية وتنقسم إلى قسمين :-

الأول: خاص بخطاباتها العائلية إلى محمد علي، وعباس، والآخر: عبارة عن تقارير تاريخية مهمة تعرض فيها مساعيها لتوطيد العلاقة بين عباس، والسلطان، كما تشتمل على أخبار المعارضين له .

* مدرس التاريخ الحديث والمعاصر - كلية البنات - جامعة عين شمس

Princess Fatma el Zahraa, The Ambassadors of Mohamed Ali and Abbas I in Asetana:

A documentary Study

Abstract

Princess Fatma el Zahraa the daughter of Mohamed Aref Basha and wife of Ismael Kamel, the son of Mohamed Ali opener of Sudan, her role as Ambassador for Mohamed Ali and Abbas Basha, grand son of Mohamed Ali .

She was authorized to influence on the Sultan's decisions and his government to serve their interests.

She played a good role in this respect , In addition that she informed Abbas with all news including the new employments, Declarations , and letters to know his position towards the Charity arrangements, and the project of Rail way (Cairo-Alexandria),(Cairo Suez).

Multiple documentary letters translated to Arabic kept in National archives in Cairo Grouped as familiar letters to Mohamed Ali & Abbas, the other group considered as historical reports involve the relation between Abbas & Sultan, the familiar news and opposable group .

الأميرة فاطمة الزهراء هي ابنة محمد عارف باشا وزوجة إسماعيل كامل ابن محمد علي وفاتح السودان. ومن خلال ملفها الضخم المحفوظ بدار الوثائق^(٩) تبين أنها كانت بمثابة السفيرة لكل من محمد علي وعباس باشا الأول؛ إذ أوكلت إليها المهام المتعلقة بزيارة الحريم السلطاني للتأثير في قرارات السلطان العثماني وحكومته لخدمة مصالحهما أولاً ولتقنتهم بها ثانياً.

ومحمد علي باشا والي مصر غنى عن التعريف، أما عباس باشا الأول فهو حفيد محمد علي والابن الوحيد لأحمد طوسون باشا، ولد في سنة 1228هـ/1813م^(١٠) ووالدته تدعى بنبة قادين ويعد الشخصية الثالثة في أسرة محمد علي، وفي حكم مصر بعد إبراهيم باشا، أنعم عليه برتبة الميرميران في سنة 1819م، وشغل كثيراً من المناصب الإدارية، وتولى مهمة تفتيش نصف مصالح الأقاليم البحرية في مايو 1828م، ثم عين مديراً للغربية في سنة 1833م، كما كان حاكماً للقاهرة، ثم عين في منصب الكتخدا^(١١)، كما كان يخضع له مفتشاً مصر العليا والسفلى اللذين كلّفا بتقديم حساباتهما إلى مفتش عام القاهرة، وهو منصب حديث كان يشغله عباس^(١٢)، كما كان عضواً في المجلس المخصوص الذي ألفه محمد علي في يناير سنة 1847م للنظر في شؤون الحكومة وإصدار القوانين^(١٣). ولم يسلم عباس من انتقادات الرحالة الذين وصفوه بالجهل والتعصب والتأخر لترتيبه التركية. وقد اتسعت الخلافات بينه وبين إبراهيم في شأن طريقة الحكم. وكان يسعى لإضعاف مكانته بمعارضته لمشروعاته في أثناء غيابه في الخارج^(١٤)، كذلك لم يكن إبراهيم راضياً عن سلوك عباس وميله إلى القسوة في معاملة الأهالي، وأجبره على الهجرة إلى الحجاز. وعندما توفي إبراهيم استدعى إلى مصر ليخلفه طبقاً لنظام وراثة العرش^(١٥). ومنذ توليه وهو يسعى لإثراء البعض على حساب تشييت ثروة البعض الآخر مع توسيع دائرة زراعته والمقربين إليه^(١٦) فاستولى على إقطاعيات محمد علي التي بلغت 400.000 فدان فأصبح أكبر مالك في مصر^(١٧)، كما انتزع وقف الأمير عبد الرحمن كتخدا في القليوبية، وأدخله في أملاكه^(١٨)، كما حاز نصيباً وافراً من موارد الدخل في عهد محمد علي؛ كالمصانع والشون والمراكب والالتزامات خارج مصر^(١٩).

ولتفهم موقف عباس من أسرة محمد علي وموقفهم منه لابد من الإشارة إلى مقولة محمد علي الذي صرح قائلاً: "إنني لا أحب سوى نفسي وما يتفق مع مصالحى، ولا أحب أبنائي إلا إذا كان من ورائهم خير"^(٢٠)، ثم قال في موضع آخر: "لقد بسطت يدي كل البسط في منح المرتبات، واتضح لى أن خير وسيلة لضمان إخلاصهم أن أجزل لهم العطاء وأسخو عليهم بالهدايا، وأن أحول بينهم وبين اقتناء الممتلكات أو أن يكون لهم نفوذ بين الأهالي"^(٢١). وقد استوعب عباس جيداً تلك

المقولات وعمل بها منذ توليه السلطة ، فهو لا يمنع إحسانه عمن يخدمه، حتى إنه أنعم على چركس أحمد بك بالكوشك - القصر - الذى ورثه عن أبيه، ثم نفاه بعد ذلك إلى أسوان ظاناً أنه يوالى سعيداً، لكنه لم يسترد عطيته لأنها فى نظره عيب كبير (12) .

وقد آثرنا أن نعطى نبذة عن عباس قبل أن نتعرض للرسائل التى كتبته الأميرة فاطمة الزهراء إليه، والملفات التى اطلعنا عليها هى مراسلات قامت بكتابتها الأميرة فاطمة الزهراء حينما كانت تقيم فى الأستانة بين ذويها، وتتمتع بثقة حميها محمد على، بعد وفاة زوجها حرقاً فى شندى (١٠) .

ولم تكن خطاباتها إلى عباس مجرد خطابات عائلية تلتبس فيها مودته والاطمئنان على أحواله، كما فى الرسائل العادية المتبادلة بين الأشخاص، لكنها كانت يغلب عليها الأمور السياسية، وكيفية التعامل مع الأشخاص ذوى الحيثية، إضافة إلى النصائح التى كانت تسديها إلى عباس الذى كان فى أمس الحاجة إليها . ولم تغفل الأميرة فاطمة الزهراء أمراً مهماً إلا وألقت عليه الضوء، فنجدها تتناول علاقة أفراد أسرة محمد على بعباس، خاصة المعارضين منهم لسياسته؛ كالأميرة نازلى هانم ابنة محمد على الكبرى، وزينب هانم ابنته الصغرى (ولدت فى 1821م) ، والأمير محمد على وغيرهم. كما يغلب على رسائلها حرصها الشديد على حسن العلاقة بين عباس والدولة العلية، وإخباره بكل ما يدور فى البلاط السلطانى من تعيينات وفرمانات، وموقف السلطان ورد فعله إزاء مواقف عباس تجاه التنظيمات الخيرية ومشروع سكة حديد القاهرة - الإسكندرية والقاهرة - السويس .

وإذا جاز لنا توصيف دور الأميرة فى هذا الصدد فمن الممكن أن نطلق عليه دور السفارة الذى أجادته فيما يتعلق بالعلاقات بينه وبين السلطان، ودور الاستخباراتية فيما يتعلق بمدى الأخبار الأخرى التى لم يطلع عليها أحد سواه حسب ما توصى به إليه.

ومجموعة السجلات والمحافظ الموجودة بقسم المحفوظات التاريخية ترجمت إلى العربية، وتنقسم إلى قسمين :

القسم الأول:- هى خطابات عائلية متبادلة بدون انقطاع من سنة 1235هـ إلى سنة 1252هـ/ 1819م - 1836م .

أما القسم الآخر :- فهى تقارير مرسله من الأميرة المذكورة إلى والى عباس باشا الأول منذ سنة 1256هـ إلى سنة 1270هـ / 1848م - 1853م ، تنبئه فيها بمساعيها لتنفيذ رغباته، والطرق التى تتبعها لتوطيد العلاقة بينه وبين الباب العالى، كما تشتمل على أخبار بعض أفراد العائلة الموجودين فى تركيا من أسرة محمد على (13). وقد ركزنا فى هذا البحث على هذا القسم لأهميته التاريخية .

اشتهرت الأميرة فاطمة الزهراء في مصر بعدة ألقاب؛ منها زهراء هانم؛ كلين هانم أو ينكة هانم بعد عهد محمد على الكبير (وتعني زوجة الأخ الكبير أو العم وهي كلمة تركية لها معنيان: عروس وزوجة الابن)⁽¹⁴⁾؛ كما أطلق عليها في إسطنبول مصرلى هانم وبولاقللى هانم أو الهانم البولاقلية، لإقامتها في سراى إسماعيل باشا في بولاق قبل أن تذهب إلى الأستانة وتعيش بين ذويها بعد وفاة زوجها، وهي ابنة عارف بك ابن خليل باشا الذي تولى القضاء في مصر من قبل الدولة العثمانية؛ إذ حضر إليها في سنة 1806م، ثم حل محله آخر في أكتوبر سنة 1807م⁽¹⁵⁾.

وقد أحضرها إسماعيل باشا معه من الأستانة عندما وجهه والده لتسليم السلطان العثماني مفاتيح الكعبة بعد الاستيلاء على الحرمين؛ إذ حضر إلى مصر في سبتمبر سنة 1813م بعد أن كرمه السلطان⁽¹⁶⁾.

وعن قصة زواجها يقول الجبرتي: " في الخامس من رمضان، حضر إسماعيل باشا ابن محمد على من الديار الرومية ووصل إلى ساحل النيل بشيرا، وضربوا لوصوله مدافع من القلعة وشبرا والجزيرة، بعد أن كان قد توجه ببشارة الحرمين، وأكرمه الدولة وأعطوه أطواخاً" (*).

ثم أقام الباشا في 27 رمضان سنة 1228 هـ/ سبتمبر 1813م جمعية ببيت الأركبية، وحضر الأعيان والمشايخ والقضاة الثلاثة، وعقدوا عقد إسماعيل على ابنة عارف بك "فاطمة الزهراء"، كما عقدوا عقد أخته نازلى هانم ابنة الباشا على محمد أفندى الذى تقلد الدفتردارية^(**)⁽¹⁷⁾. وقد تحدد شهر محرم 1229 هـ/ديسمبر 1813م موعداً للاحتفال بزفاف ابنه وابنته، وألزم السيد محمد المحروقى بتنظيم العرس ومتطلباته، على أن يكون ببركة الأركبية بالقرب من بيت حريم الباشا، واحتفل بهذا العرس جميع طوائف المجتمع، وتم الإنعام عليهم بإنعامات متنوعة⁽¹⁸⁾. وكانت هذه الاحتفالات في كثير من الأحيان تشكل عبئاً مالياً على الدولة والأهالي الذين كانوا يلزمون بإظهار الولاء والطاعة للباشا وأسرته. وتذكر الوثائق أن إسماعيل باشا كان واحداً من ضمن الأولاد الخمسة الذين ولدوا لمحمد على في قرية نصرتلى من قرى درامة، وهم توحيدة وإبراهيم وأحمد طوسون وإسماعيل وخديجة. وبعد زواجه من فاطمة الزهراء أمر بالسفر لضبط بلاد النوبة وفتحها فمات حرقاً في شندى. وكان محمد على عندما يسافر إلى السودان لا يستطيع أن ينظر إلى هذا المكان⁽¹⁹⁾.

وقد أنجب إسماعيل من فاطمة الزهراء عدداً من الأبناء منهم على بك ورءوف بك، وقد خصص لهما محمد على مرتبات ومخصصات عينية، كما كان

للأميرة إينتان هما خانزاده هانم وبزمى هانم⁽²⁰⁾ ، وللأميرة فاطمة الزهراء عدة إخوة هم راشد بك وعاصم بك وحמיד بك، كما أنها تنتمى إلى أسرة ذات حيثية فى الأستانة، فقد تولى بعض أفرادها مناصب مرموقة فى الدولة ، إذ كان ابن أخيها المدعو عطا بك من الصدور؛ أى من الحائزين على رتبة قاضى عسكر الأناضول أو قاضى عسكر درمللى، وهى من الرتب العلمية فى الدولة العثمانية⁽²¹⁾ . كما كان لأقاربها دور كبير فى خدمة مصالح محمد على لدى دوائر الحكومة المركزية، ومنهم نور الله بك عمها، وإسماعيل بك الكاملى أحد أقاربها، وغيرهما ممن كانوا يعملون جواسيس لمحمد على فى الأستانة، كما ساعدته الأميرة بعلاقاتها المتعددة والثيقة بحريم السلطان، وكان هذا سبباً فى ارتفاع المخصصات المنصرفة لها ولأقاربها على هيئة مرتبات شهرية، التى حرص محمد على أن تبقى سرية لا يعلم بها أحد⁽²²⁾ . وعندما توسع محمد على فى صرف المرتبات والمخصصات توافد أقاربه وأهالى قوله إلى مصر كما امتدت هذه المخصصات إلى المقيمين فى الأستانة مثل لؤلؤ تر قادين والددة رائف بك قريب الأميرة فاطمة الزهراء وكان مرتبها ألف قرش شهرياً، وبدأ صرفه اعتباراً من ديسمبر 1836م حتى أواخر عصر محمد على، ومنهم أيضاً عطا بك الذى بلغ مرتبه خمسة أكياس شهرياً؛ أى 2500 قرش منذ فبراير 1847م⁽²³⁾ . وربما كان سبب هذه العطايا هو مكافأتهم على ما قدموه من خدمات لمحمد على أو إكراماً لخاطر الأميرة فاطمة الزهراء وكسب ود أقاربها. وقد انصب اهتمام محمد على عليها منذ أصبحت أرملة ابنه إسماعيل، ومنذ وفاته، وهى تقضى معظم أوقاتها فى إسطنبول حيث أصبح لها شأن عظيم لدى والددة السلطان^(*) . ومن هنا استخدمت لصالح محمد على ثم عباس لتحقيق مطالبهما الشخصية⁽²⁴⁾ . وكانت طبيعة العصر هى التى أملت عليها القيام بتلك الوظيفة، فدأبت على إرسال الرسائل من الأستانة لإخبارهما بما يدور فيها، وعلى هذا الأساس كانت تتلقى مرتبات تفوق فى قيمتها ما خصص لنظيراتها من الأميرات الأخريات .

مخصصاتها النقدية والعينية (فى عهدى محمد على وعباس) :

حظيت الأميرة فاطمة الزهراء بمكانة كبيرة لدى محمد على، وعلى هذا الأساس خصص لها وهى تقيم فى بولاق مرتباً شهرياً قدره 12.500 قرش⁽²⁵⁾ ، كما كانت مثار اهتمام المعية السنية وحرصها على منحها المرتبات والإنعامات المخصصة لها، فحينما فقدت إحدى حوالاتها طلب من ديوان المبيعات استخراج صورة بدل فاقد بروتبها وإنعاماتها حتى محرم 1249هـ / مايو 1833م، وإرسالها إلى سموها لحاجتها إلى النقود⁽²⁶⁾ .

ولكنثرة تردها على الأستانة لزيارة أسرتها فقد خصص لها 650 كيساً، منها 500 كيس نفقة سفر، و150 كيساً من إيراد بعض القرى الموجودة بكريت الخاصة بأخيها عاصم بك (27).

وفي سنة 1252هـ/1835م أعطى لها أيضاً 395 كيساً، منها 250 كيساً نفقة سفر، و140 كيساً من حساب مرتباتها ومرتبات حاشيتها، وخمسة أكياس إنعاماً على رسولها إدريس أغا، كما تم منحها 200 كيس أخرى من الخواجة مقريج ثمناً للهدايا التي ستقدم لجلالة السلطنة في الأستانة (28). وعندما ذهبت إلى هناك في رجب 1255هـ/ سبتمبر 1839م لرعاية شئون أيتام والدها وأرامله، ولتنفيذ أوامر محمد علي، كانت تتولى الصرف على تلك المهام ببذخ شديد، وكان يصرف لها جميع مطلباتها، ومنها تخصيص مرتب لها، قدره 50 كيساً شهرياً كما خصص لها أحد القصور بالأستانة لتقيم به، وقد أطلق عليه القصر الصيفي. والحقيقة أن مرتبات الأميرة فاطمة الزهراء كانت تفوق مرتبات غيرها من زوجات أبناء محمد علي لعدة أسباب؛ منها درجة القرابة، والأهمية داخل الحريم السلطاني، والدور الذي تكلف به؛ وهو مما يجعلها ذات تأثير في السلطان لاتخاذ القرارات لصالح محمد علي، إضافة إلى إسرافها. وقد نهاها محمد علي عن ذلك حينما سأله في ذي القعدة سنة 1262هـ/1846م زيادة مرتبتها ورفض طلبها وأوصاها بعدم الإسراف، وظل مرتبتها كما هو 50 كيساً (29). وبرغم هذا كانت تتقاضى مرتباً ضعيف مرتب بنبا هانم زوجة طوسون باشا (30) ثم عاد محمد علي وبسط يده في الأموال التي أغدقها عليها في زيارتها إلى الأندرون الهمايوني (دائرة الحرم السلطاني). وكان شهر شوال من أكثر الشهور التي أنفقت فيها مبالغ كثيرة، فقد اعتاد الباشا إرسال العيديات لأفراد الأسرة رجالاً ونساء، وبذل الأموال والهدايا للأميرات الأستانة وحريم قصور السلطان وكبار رجال دولته؛ وذلك للتأثير في دوائر اتخاذ القرار لتحقيق أهدافه الخاصة، وكانت الهدايا يخصص لها بند من المصروفات الثابتة، وكذلك النفقات المرسلة إلى إسطنبول، إضافة إلى المصروفات السرية الأخرى التي كانت تتفق في العاصمة (31).

وإضافة إلى ما سبق كان لفاطمة الزهراء بدل تعيين قدرت قيمته بـ 6615 قرشاً شهرياً، وكان هذا التعيين يرسل إليها في محل إقامتها بإسطنبول، هذا إضافة إلى مخصصات عينية أخرى تتمثل في الأكسية والمفروشات وأدوات المائدة ولوازم القصور، وقد خصص لها 110.289 قرشاً، إضافة إلى إنعامه عليها بمبلغ 200.000 قرش لترميم قصرها الساحلي بالأستانة ومفروشاته، على أن تقيد في دفاتر الإنعامات (32).

أما فى عهد عباس فقد اقتنع هو الآخر بأهمية الدور الذى كانت تلعبه فاطمة الزهراء فى البلاط والحريم السلطانى لخدمته والدفاع عنه إزاء الاتهامات التى كانت تكال ضده من جانب أفراد أسرة محمد على بخاصة المعارضون منهم.

فقد كانت الأميرة زينب ابنة محمد على الصغرى وأختها الكبرى الأميرة نازلى تكتان عداء مستحكما لعباس باشا، فكثيراً ما كانت فاطمة تدحض اتهاماتهما أمام الوالدة السلطنة بالأستانة ، كما كان يصرف لها مرتبات من بيت المال من فوايض تركية زوجها إسماعيل باشا؛ ففي عام 1831م-1832م/ 1247هـ قدرت المبالغ التى كانت تصرف لها شهرياً بـ 1481 قرشاً باسم حرم جنتمکان إسماعيل باشا على أن يخصم من ذمة عثمان جنبلاط من حساب بيت المال، أما ابنتاها خانزاده هانم وبزمى هانم فكان يصرف لكل منهما مرتب شهري قيمته 250 قرشاً⁽³³⁾.

هذا إضافة إلى حيازة الأميرة فاطمة الزهراء بعض الأوقاف الخاصة بالست ستيتة بنت المرحوم أحمد الجلفى برغم إقامتها فى الأستانة⁽³⁴⁾، كما أحيطت علماً بمقدار العلاوة التى قدرها لها عباس الذى رأى ضمها إلى مرتبتها الشهرى نظير ما تقوم به من خدمات وأخبر الخواجة كيورك؛ لأنه كان مكلفاً بصرف تلك الأموال بمجرد وصول الأمر إليه⁽³⁵⁾.

ويبدو أن هذا الأمر قد صدر من عباس بناء على طلب مسبق من الأميرة فاطمة الزهراء حينما رفضت إعطاءها أيعادية ، وطلبت منحها علاوة على مرتبتها فأضاف إليه عشرة آلاف قرش ، كما أمر بتسديد كل ديونها التى أصبحت مركبة منذ عهد محمد على. وتذكر الأميرة أن هذه الديون لم تكن من أجل سفاهتها أو إسرافها وإنما أنفقتها فى سبيل مصلحة محمد على ورفع مكانته. وعندما أجرى تحقيق فى هذا الموضوع تأكد صدق قولها وتفضل عباس باشا بتسديده بالكامل .

وتسترسل الأميرة قائلة : "لقد تكلفت نقوداً كثيرة حينما سافرت إلى مصر، ولم أعط فلساً واحداً، ولكن حين عودتى منحنى مبلغاً قدره خمسمائة كيس أنفقتها جميعاً على الهدايا التى صحبتها معى إلى إسطنبول"⁽³⁶⁾. كما نجدها فى أحد رسائلها إلى عباس توجه إليه الشكر على ما أنعمه بدون استحقاق- على حد قولها- من أنواع العطف والرعاية، وإرسال مبلغ خمسمائة كيس، وكأنه أحيائها من جديد بهذه المنة الكبرى⁽³⁷⁾. وإلى جانب مخصصاتها النقدية التى خصصها لها عباس واقتناعه بزيادة مرتبتها كانت لها مخصصات عينية ترسل إليها فى الأستانة حيث تقيم ، وتشمل الحنطة والأرز والعدس والسكر وشمع العسل وغيرها من المواد الغذائية التى كانت تصرف لمثيلاتها فى مصر⁽³⁸⁾. هذا إضافة إلى القمح⁽³⁹⁾. ويبدو أن اهتمام عباس البالغ بالأميرة فاطمة الزهراء قد أثار الغيرة فى قلوب بعض أفراد

أسرة محمد على الذين اتهموها بالحصول على كثير من الأموال وتحف أوروبا ومصر. وقد نفت ذلك مؤكدة أنها لم تطالب عباسا بمجوهراتها متعللة بمضى الوقت الذى تترين فيه بمثلها⁽⁴⁰⁾. وبرغم ذلك استمر عباس فى إنعاماته على الأميرة فاطمة الزهراء، فى حين لم يجب للأميرة نازلى ابنة محمد على الكبرى مطالبها، وكان الأجدى أن يكون كريماً مع عمته أولاً ثم زوجة عمه، لكن الأولى لم تكن تتقن الأسلوب الدبلوماسى الذى كانت تتعامل به زوجة عمه، إضافة إلى حرصها فى رسائلها على دوام الدعاء له. وكان عباس يميل إلى مثل هذه الإطراءات التى لم تكن تجيدها الأميرة نازلى.

أخبار العائلة:

لم تكن الخطابات التى عثرنا عليها فى دار الوثائق الخاصة بفاطمة الزهراء كلها خطابات تتعلق بأمور الدولة السياسية كعلاقة الدولة العلية بباشوية مصر أو علاقة محمد على وعباس بالسلطان، بل كانت هناك أمور شخصية وعامة أولتها اهتمامها، فنجدها تكتب إلى ولى النعم ترجوه تثبيت أخيها فى وظيفته، وكان يدعى محمد راشد أفندى، وقد قدم إلى مصر متولياً قضاءها، واقتربت مدة فصله فناشدته تجديد مدته ومكاتبته الأستانة فى ذلك، بعد أن فشلت مساعيه للبقاء فى الخدمة واختتمت رسالتها قائلة: "إن أمورنا موكولة إلى إحسانات مولانا"⁽⁴¹⁾. ولم يهمل خطابها، وجاءها الرد بدعوتها إلى الإسكندرية بصحبة أخيها، ووعداها الجنب العالى بإسكانه فى قصر الإسكندرية، والسماح لها بزيارته من حين لآخر، "لتطفئ بلفائه شوقها"⁽⁴²⁾.

ومن الأمور الشخصية الأخرى التى شغلت اهتمامها مطالبته الباشا بالسماح لها بمقابلة أختها عند حضورها إلى ضفاف اليوسفور بناء على دعوة السلطنة عطية وعائلة، وتخبره بأن هذه الرحلة ستتكلف من ثمانمائة كيس إلى ألف وستمائة كيس، ثم تبدى سرورها إذا تيسر لها أمر هذه المقابلة، "فكانها أوتيت الدنيا وما فيها"⁽⁴³⁾. غير أنها لم تهتم بأفراد عائلتها فحسب بل نجدها تحرص على مكاتبته إلهامى بن عباس باشا وتحضه على مراسلتها لمعرفة أخباره؛ لأن ذلك يدخل السرور إلى قلبها، ثم تتساءل: "أهكذا تكون البنوة؟"، ورجته أن يبلغ سلامها إلى جوارىها تران دل هانم والسيدة مهر كمال. وقد تفضل بالرد عليها، وعبر عن مدى سروره بمكاتبته، وأفادها بتوصيل سلامها إلى جوارىها حسب طلبها، واعتذر عن تأخره فى الكتابة إليها، متعللاً بانشغاله بالدرس والتحصيل، وأنهى خطابه "بترديد الدعوات الصالحات لها عن غيب"⁽⁴⁴⁾. أما الرسالة الرابعة فكانت خاصة ببنت القابلة التى تعمل فى السراى السلطانى، وكان لها ابن وبنت يقيمان فى الحجاز منذ سنين طويلة، فناشدت فاطمة الزهراء لتكتب إلى عباس باشا لينتقل بإرسالهما من مصر إلى الإسكندرية، ومنها إلى إسطنبول لتتعم بأموتهما حين

تراهما وقد قبل الوالى هذا الالتماس، وشمل الضيفين بمساعدته الكريمة، وأصدر أمراً إلى المالية بمنحهما عشرة آلاف قرش بتاريخ 2 ربيع الأول 1268هـ / 26 ديسمبر 1851 م⁽⁴⁵⁾.

وإضافة إلى خطاباتها المهمة بالأمور الشخصية والعامة رأينا إلقاء الضوء على دورها المهم فيما يتعلق بأسرة محمد على، والخلافات التى دبت بينهم وبين عباس باشا، وحرصها على زيارة القصر السلطانى فى المناسبات الدينية وغيرها، لمعرفة ما يحدث، وإبلاغ عباس بما يهمه من أمرها، وفى الوقت نفسه تقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان والسلطانة، وذلك بالقيام بواجبات التزاور، وتقديم الهدايا من حين لآخر، لتنفيذ رغبات عباس. فنجدها تقدم عريضة تلتمس فيها الاشتراك فى حفلة المولد التى تقيمها جلالة السلطانة. وبالفعل تلقت الدعوة بالحضور. وفى معية جلالة السلطان أكد لها أن دولة عباس باشا لا يقع منه أى قصور فى خدمة دولته العلية"، وإن كان غاضباً عليك فهذا لا يليق منه إزاء الصداقة البالغة التى تبينها له". وعلى الفور أدركت أن لدى السلطان علماً بسبب غضب عباس عليها، مؤداه أنها لا تسارع بعرض الإشاعات الكاذبة التى تدور حوله وحول ساداتها أولياء النعمة، كما نوهت فى رسائلها إلى عباس بما دار من أحاديث بين السلطانة وبينها " حتى حدث التأثير المطلوب من أجلكم وتركتها وعطفها على دولتكم فى درجة الكمال، وكانت الأحاديث التى تبودلت كلها فى صالحكم وخيركم، "وقالت السلطانة: "يعلم الله أنى أحب عباس باشا كثيراً، وأن غيرتى لصالحه فى درجة الكمال"، وأشارت الأميرة فى تلك الرسالة إلى أنه نما إلى علمها قرب مجيء الأمير محمد على بك، وأبدت استعدادها لاستضافته فى دارها لتزوده بالنصائح اللازمة حتى لا يترك فريسة فى وسط الوشاة الذين اعتادوا النقول على دولة عباس باشا، ونصحت به بحجز الأميرة نازلى فى مصر لأن فى هذا خيراً لدولته⁽⁴⁶⁾.

وفى رسالة أخرى إلى عباس أوضحت الأميرة أنها علمت من السلطانة بورود عرائض من الأمير محمد على بك والأميرة نازلى يلتسمان فيها الإذن بالمجئ إلى الأستانة، فارتأت عدم مجيئهما؛ لأن ذلك سيؤدى إلى سوء الحالة فى مصر، وبمرور الزمن لن يبقى فيها أحد، وكانت على يقين من أنه إذا حضرت نازلى إلى الأستانة فسوف يعيدونها إلى مصر فى غضون أربعة أشهر؛ لما تتسم به من خلق بعث فى نفس والدها الاستياء، حتى إنه كان يدعو عليها فى حياته إلى أن وافته المنية⁽⁴⁷⁾. هذا وقد أفادت الأميرة فاطمة الزهراء عباس باشا بأنها تلقت أوامره التى أوفدها مع كانى باشا لتوصيلها إلى الأستانة والخاصة بالآتى:

- إقامة الباشا الأمير محمد على الصغير بدارها إلى حين ختام المهمة التى أوفد من أجلها، وحتى عودته إلى مصر.

- تقديم التسهيلات والمساعدات اللازمة، فهو من رجال مصر العظماء الذين يستحقون الرعاية والاحترام

- التوجه إلى القصر العالي لإبلاغ الجهات العليا المحاذير من مجيء الأميرتين نازلي هانم وزينب هانم والأمير محمد على بك إلى إسطنبول. وبالفعل نفذت الأميرة تلك الأوامر، واستضافت الأمير في منزلها، وأوصت الصدر الأعظم بعمل اللازم نحوه⁽⁴⁸⁾، ثم عاودت الأميرة فاطمة الزهراء الكتابة إلى عباس باشا ناصحة إياه بعدم الغضب على نازلي هانم التي جهزت لزوجة والدها بعد عودتها من الحجاز حجرة، وجهزتها بالكراسي المكسوة بالحرير، ونقلت إليه انتقاد الناس؛ لأنه استكثر على الأميرة نازلي أن تؤسس غرفة لزوجة محمد على، ونصحته بالتودد لمعارضيه⁽⁴⁹⁾. لهذا عندما وصلت الأميرة زينب إلى إسطنبول أرسل عباس رسالة يوصي فيها بمعاملتها معاملة حسنة⁽⁵⁰⁾. وعلى العكس من ذلك يذكر المعارضون لعباس أنه استولى على الإقطاعيات التي وزعها محمد على على أسرته وحاشيته؛ وهو مما جعلهم يهاجرون إلى إسطنبول ويشكلون حزباً مناوئاً لعباس، ويطالبونه بميراثهم من المجوهرات والأراضي، كما طالبوه بأن يرد إليهم نفقات إصلاحها. وأصر عباس على موقفه، وذهب إلى أن الأموال التي أنفقها محمد على وأنفقوها هم كانت في الأصل ملكاً لحكومته التي يحق لها أن تستردها⁽⁵¹⁾. وعن معارضى عباس وشاياتهم تحدثت الأميرة فاطمة الزهراء عما سببوه من أذى؛ لأنهم عاكفون على إذاعة الشائعات وإثارة القيل والقال. وأهابت برشيد باشا ألا يساير" ألاعيب هؤلاء الأطفال"، حرصاً على المصالح المصرية السلطانية⁽⁵²⁾. ثم عادت وأكدت إخلاصها لعباس لتبقيته التامة للسلطان. وفي الوقت نفسه أبدت استياءها من موقف زينب هانم لاستمرار معارضتها لعباس - برغم وفائه بالتزاماته تجاهها، وإرسال ممتلكاتها إليها بعد سفرها كاملة غير منقوصة -، ولشحها ورفضها إعطاء مرتبات الطباقين والبوابين القائمين على خدمتها في الأسانة⁽⁵³⁾. ومن المعروف أن شئون السراي كانت لا تسير إلا بالمال، ولهذا أخبرت الأميرة فاطمة الزهراء عباس باشا بأنها لا تريد أن تغضب زينب، وأنها ستستمر في التودد إليها؛ لأنها إن أغضبتها لن تحصل منها على الأخبار^(*).

ونستنتج من الرسالة السابقة أن الأميرة فاطمة الزهراء ربما كانت تستحث الوالي على إرسال الأموال إليها لمساعدتها في مهامها والتقرب بها من الأميرة زينب. أما الأميرة نازلي فكانت تطالب السلطنة بالكتابة إلى عباس ليعطيها بعضاً من مال محمد على يتراوح ما بين ثلاثة و أربعة آلاف كيس لتشتري به قصراً في إسطنبول أسوة بالقصر الذي اشتراه لوالدته، الذي قدرت قيمته بعشرين ألف كيس، وعندما استفسرت السلطنة من الأميرة فاطمة الزهراء عن أحقية طلبها لتنفيذ

رغبتها، أفادتها بأن عباس باشا قام بتوزيع ثروة محمد على ، لكن إذا أمرت السلطانة عباس بشيء فإنه "سيجود بروحه لا بالمال، لكن من العسير إشباع بطون هؤلاء فضلا عن تعرض الخزينة المصرية للإفلاس، "فاقتنعت السلطانة برأى الأميرة، ولم تصدق أقوال نازلى هانم⁽⁵⁴⁾. وعلى العكس من فاطمة الزهراء يذكر كلوت بك أن نازلى كانت تقضى حياتها فى عمل المبرات، وتحاول أن تستميل الناس إلى محبتها بفيض إحساناتها وعميم خيراتها⁽⁵⁵⁾.

كذلك تبادل عباس الرسائل مع فاطمة الزهراء، وأشاد فيها بالود والمحبة بينهما. وقد انتهاز فرصة سفر والدته إلى الأستانة لتقديم فروض الطاعة للوالدة السلطانة، فأوصى الأميرة بمرافقتها إلى القصر الهمايونى والترحيب بها وقبول هديته المرسلة⁽⁵⁶⁾.

وفى رسالة أخرى أخبر الأميرة فاطمة الزهراء بأن السلطانة عطية وعادلة ستقيمان مادية لوالدته مقدارها ثمانمائة كيس، منوهاً إلى استعداده لدفع المبلغ حين وقوع الدعوة المذكورة⁽⁵⁷⁾. ونستشف من العبارة السابقة مدى حرص عباس الشديد على المال.

كذلك كانت السلطانة الوالدة تتبادل الرسائل مع فاطمة الزهراء من حين لآخر، وتبلغها بالهدايا التى وصلتها من عباس، وتطلب تبليغ سلامها إلى أفراد أسرته⁽⁵⁸⁾ ، وتنتهى على إخلاصه وحسن أدائه مهام منصبه وولائه للدولة العلية⁽⁵⁹⁾. كذلك تبودلت الرسائل الشخصية بين فاطمة الزهراء والجناب العالى بدون الخوض فى الأمور السياسية⁽⁶⁰⁾.

وفى اعتقادنا أن هذه الخطابات كانت تكتب فى الفترة التى لا تجد فيها الأميرة أخبارا تبثها إلى عباس. فبدلاً من انقطاع الرسائل كانت تحرص على استمرار الود بكتابة هذه الرسائل التى لا تخلو من الدعاء بالصحة وطول العمر .

ويبدو أن إخلاصها لم يكن مقصوراً على عباس باشا فحسب بل كان ولاؤها للسلطانة لا يقل أهمية، فنجدها تقدم النصح لها بعدم زواج الأمير محمد على باشا من الأميرة السلطانة الصغيرة أو حتى منحه رتبة المشيرية ؛ لأن سلوكه لا يزيكه، فقد سبق له هو وسعيد باشا أن جمعا حولهما جماعة من القداماء والمرترقة والمطربين، هذا إضافة إلى أن الأمير محمد على كان قد تزوج، وله أولاد و عدد من الجوارى يتسرى بهن. وكان رد السلطانة كالاتى : " علمت من بيانك على وجه الصحة ما لا أعلمه مما يعنينى من الأمور "⁽⁶¹⁾ . وفى الوقت الذى لا تؤيد فيه فاطمة الزهراء زواج الأمير محمد على من ابنة السلطان ، نجدها تركى الأمير الهامى بن عباس باشا قائلة : " أفادتنى السلطانة بأن الهامى ينوى الحضور إلى

إسطنبول، وقد راجت إشاعة أنه قادم ليتزوج بالأميرة السلطانية، حتى جعلوني أصدق تلك الإشاعة، حتى كذبها أدهم باشا رسول الجنب العالي". والحققة أن عباس باشا كان يهتّم بتربية ابنه الإهامى، وكان يلازمه دائماً ليكون تحت إشرافه عن كُتب، حتى إنه لا يسمح له بالتوجه إلى الحرملك إلا مرة واحدة فى الأسبوع⁽⁶²⁾. وقد أكدت المراجع فيما بعد ذلك الخبر حين ذكرت أن الإهامى زار الأستانة فى 1270هـ/1853-1854م، وتشرف بمقابلة السلطان عبد المجيد، الذى أعجب بذكائه ومعرفته، فأحبه وزوجه بابنته، وغمره بنعمه ثم عاد إلى مصر⁽⁶³⁾.

واستمرت الأميرة فاطمة الزهراء فى عرض مساوئ معارضى عباس أو من تسميهم بالتتحف، كما يحلو لها، فنجدها تشير إلى مساوئ نازلى هانم، وكيف أنها فضحت نفسها بنفسها، وأساءت إلى سمعتها حتى جعلت الجميع يسخر منها، كما أن والدة الأميرة زينب كانت تتمنى العودة إلى مصر؛ لأنها أصبحت لا تطيق جنونهم، وطلبت إبلاغ عباس باشا بإسداء النصح لهم⁽⁶⁴⁾؛ لأن الأميرة فاطمة الزهراء سئمت الحديث عنهم، لدرجة أنها أعربت عن رغبتها للسلطنة الوالدة فى الرحيل إلى بلد آخر لبعض الوقت لتستريح من مضايقاتهم⁽⁶⁵⁾، غير أنها لم تفعل، واستمرت فى فضح نوايا الأميرة نازلى التى ذهبت إلى مقابلة السلطنة الوالدة ومعها خمس وعشرون عريضة. لهذا تعمدت فاطمة الزهراء ملازمة السلطنة لتحول دون انفراد الأميرة نازلى بالسلطنة، ومن ثم فوتت عليها الفرصة فى عرض عرائضها.

وقد علم عباس بسوء سلوك أعضاء الأسرة، كما علم به كل من السلطان ورشيد باشا الصدر الأعظم، وطلب من الأخير معالجة هذا الموقف ووضع حد لسلوكهم الشائن. وقد اهتمت الوالدة السلطنة ببحث الموضوع مع أدهم باشا وخير الدين باشا رسولى الجنب العالي، ونصحت فاطمة الزهراء بعدم إغضاب السلطان.

فى هذه الفترة علمت الأميرة فاطمة الزهراء بأن الأميرة نازلى زفت خبر عزل رشيد باشا إلى عباس طمعاً فى البشارة وقدرها عدة آلاف كيس، أما الأمير محمد على ومن معه فقد حزنوا عليه حزناً شديداً.

وفى هذا الصدد تقول فاطمة الزهراء: "إنهم لم يحزنوا على أحد حتى وفاة والدهم محمد على الكبير شعروا بالسرور، وهم على استعداد لانتقاد رشيد باشا انتقاداً مرّاً إذا رأوا عطفاً من رءوف باشا الصدر الأعظم الحالى"⁽⁶⁶⁾.

وهكذا أوضحت الأميرة فاطمة الزهراء حقيقة مشاعرهم، فهم ليسوا أصحاب مبدأ أو سياسة مرسومة، بل يضعون مصلحتهم فوق كل اعتبار، فهم مع هذا أو ذاك مادام ذلك يتفق مع مصلحتهم. والحققة أن أخبار العائلة لم تنقطع من رسائل

الأميرة فاطمة الزهراء، فنجدها تنفى اتهامات سعيد باشا إياها بالتهرب منه؛ لأنها كانت ترسل رسلها إلى الحجر الصحى لاستقبال القادمين من أولاد محمد على احتراماً لذكراه⁽⁶⁷⁾، وتوعدت سعيد فى حالة ترووجه أية دعاية سيئة ضد عباس فإنها ستقوم باتخاذ اللازم وإخبار الباشا بذلك، كما أحاطته علماً بمحاولات الأمير محمد على الذى اشترى داراً ملك يعقوب أفندى " كتحذا المغفور لها الأميرة عطية " بمبلغ 1850 كيساً، وبرغم ذلك طلب من الأميرة فاطمة الزهراء إعطاءه بعض الأراضى متوسلاً إليها بأساليب التملق والسياسة، غير أنها ردت عليه بالسلب، بحجة أن تلك الأراضى ملك لوالدها، وهى تريد البناء عليها فى العام القادم، فعاد حزناً لرفض طلبه.

كما أفادت الأميرة فاطمة الزهراء عباس باشا بأن الأميرة نازلى هانم أثارت بعض الشغب حينما منعت من دخول القصر السلطانى فى العيد لأنها لم تحصل على إذن سابق، كما هو معروف فى مثل تلك الحالات⁽⁶⁸⁾.

ولم تكن هذه الفضيحة الأولى من نوعها التى ارتكبتها نازلى، فنجدها تكرر مثل هذه الأمور حينما أقامت فى منزل محمد أفندى الخازن السابق لعدة أيام استباحات فيها داره من أثاث ومأكولات ؛ وهو مما أثار حفيظته⁽⁶⁹⁾ ، ومثلما أشرنا من قبل إلى العلاقات الودية بين السلطنة وعباس فنجدها كذلك بين عباس والسلطان بدليل؛ أنه وقف موقفاً معادياً من معارضى عباس حينما رفض أن يعطى سعيداً رتبة المشيرية، فى حين أعطاهما لإلهامى ابن عباس، كما منح الأميرة فاطمة الزهراء كثيراً من الهدايا التى بلغت قيمتها ما بين عشرة آلاف وخمسة وعشرين ألف قرش لإخلاصها لعباس⁽⁷⁰⁾.

والحقيقة أن الغيرة من الأميرة فاطمة الزهراء قد أكلت قلوبهم، لدرجة أنهم حينما علموا نبأ مرضها رصدوا مبلغاً قدر بعشرين ألف قرش لمن يأتى بخبر موتها، كما وعدوا الأطباء المعالجين بمبلغ ثمانين ألف قرش إذا وجدوا وسيلة للتعجيل بموتها.

لهذا لم تكف الأميرة فاطمة الزهراء فى رسائلها عن ذكر طباع الأمراء والأميرات المصريات السيئة، واتخاذهم القيل والقال على سبيل التسلية، وكيف أنها لم تكن تريد مجيئهم إلى الأستانة، لا لحقد أو نية سيئة ولكن لوقايتهم من الفضيحة، واحتراماً لذكرى محمد على، وتأبيداً لاستياء عباس والسلطنة والصدر الأعظم من معارضتهم⁽⁷¹⁾. وانتهزت الأميرة فاطمة الزهراء تلك الفرصة وأخبرت عباس باشا كالعادة بالنوايا الحقيقية لأفراد الأسرة المقيمين فى إسطنبول بأنهم سيوكلون بعض الأمراء المقيمين فى مصر للمطالبة بميراثهم. هكذا ظلت قضية الميراث تشغل بال الأمراء، واتخذوها ذريعة لإثارة المتاعب فى وجه عباس؛ وهو الأمر

الذى يقطع الأمل بأنهم " لن يكونوا من مؤيديه بأى حال " (72). وفى خطاب آخر أفادت الأميرة عباس باشا بخبر وصول والده الأمير محمد على إلى إسطنبول، وأن كلا من زينب هانم وكامل باشا (*) وغيرهما والصدر الأعظم قد قدموا التماسا ذكروا فيه أن حرم المغفور له محمد على تستحق العطف والتكريم، لذلك دعتها السلطنة إلى قصرها واستضافتها ليلتين وتبادلنا الهدايا، ثم حذرته من الأميرة زينب لأنه تنامى إلى علمها أنها تحاول مكاتبته متظاهرة بفتح باب المودة والصداقة من جديد، والتمست منه ألا يثق بمطلبها مادام هناك شخص مثل كامل باشا، فهى وإن كانت من أقرب أقرائكم فإنها تريد أن " تثبت لكم مكيدة كما أنهم يضمرّون لى العداوة ولو تمكنوا منى لقطعونى ألف قطعة " (73) .

وبخلاف المعارضين السابقين كان هناك أيضاً كل من إسماعيل بك ومصطفى بك ابنى إبراهيم باشا وعبد الحليم باشا (**) بن محمد على. وقد أوصت فاطمة الزهراء عباس باشا بعدم إطلاعهم على الأخبار الواردة فى رسائلها؛ لأن مصطفى بك صرح بأن الرسائل التى كتبتها أرملة عمه فى جيبه، فخشيت الأميرة من افتضاح أمرها لدى السراى الهاميونى فى حالة تحريفهم لرسائلها؛ وهو مما يعرضها للاذى والحرج، ويمنعها فى المستقبل من مراسلة عباس. وقد نسب كل من الأمير مصطفى بك والأمير محمد على كل ما أصابهم من محن إلى كامل باشا الذى كان سبباً فى تشييتهم وتفريقهم؛ "مثل شعوب العرب لا تربطهم رابطة"، على حد تعبير فاطمة الزهراء (74) .

وقد ضاق عباس باشا ذرعاً بما ارتكبه مصطفى بك من أعمال لا تتوافق مع ما قدمه له من خدمات، ولهذا نجد عباس يرسل خطاباً إلى فاطمة الزهراء يخبرها فيه بأنه قد شمله بالعطف والرعاية والمساعدة من جميع النواحي، كما كان يفضلها على سائر أعضاء الأسرة، ويعمل على تطيب خاطره . وعلى الرغم من ذلك فقد استمر فى معارضة عباس باشا، كما أساء إلى العلاقات بينه وبين أمراء الأسرة الآخرين من أبناء محمد على وإبراهيم (*) ، وتمكن من إلقاء بذور الفتنة بينهم حتى نجح فى تفريقهم، واستأثر بحب عباس، ونال منه كثيراً من الإنعامات المالية والعقارية قدرت قيمتها خلال سنة واحدة بمبلغ ثمانمائة ألف كيس، ثم تركه وعاد إلى إسطنبول، ولهذا بادر عباس بالكتابة إلى زوج عمه لييصرها بأمره، وعدم إخلاصه ، وأخذ الحيلة من تصرفاته، والقضاء على شره وتزويره (75) .

وبعد مرور ثلاثة أسابيع كتبت الأميرة فاطمة الزهراء إلى عباس باشا تفيده بأن الأميرين عبد الحليم بك ومصطفى بك وصلا إلى إسطنبول وتوجها إلى زيارة الصدر الأعظم، وعندما أعلمت نازلى بالخبر قابلته بالدهشة، وتظاهرت بأنها لم تسر من قدومهما. ولا غرابة فى ذلك، فإن الأميرات والأمراء، وإن كانوا متحدى الفكر والغاية فى الظاهر؛ فإنهم فى الحقيقة بعضهم عدو لبعض كما كانوا فى مصر .

وقد تعجبت الأميرة نازلى من موقف مصطفى بك من عباس، واستتكرت تصرفاته معه، ومجيبته إلى إسطنبول رغم عطف عباس عليه، وأضافت قائلة: "لقد جئنا وماذا لقينا" (76).

ومن منطلق إخلاص فاطمة الزهراء لعباس وحرصها على مال الخزينة نجدها تخبره بقيمة الهدايا التى أنفقتها الأميرة زينب عند عقد قرانها حتى يكون على علم قبل أن تعرض عليه قوائم أخرى مبالغ فيها⁽⁷⁷⁾. إضافة إلى حرصها على إظهار كذب بعض أفراد أسرة محمد على المقيمين فى إسطنبول وشره بعضهم للمال وردّها على مهاراتهم ؛ ففى إحدى رسائلها أوضحت أن الأميرة زينب لم تكن تقيم مع والدتها التى كانت غاضبة عليها، وعندما سئلت الأميرة زينب عن عدم حضور والدتها معها إلى إسطنبول أجابت بأن لها أملاكاً فى مصر، فظلت بها لتشرف عليها، وقد تعجبت السلطانة من تفرق زينب ووالدتها ؛ إذ من المعروف أن الأميرات كن يقمن مع والدتهن فى قصورهن بعد زواجهن، كما أن الأمراء الذين عادوا من الخارج بعد تولى عباس قد زوجوا ومنحوا سرايات، وقررت لهم المرتبات والتعيينات . وإذا صح ما ذكرته الأميرة فاطمة الزهراء فهذا دلالة على أن عباس باشا كان كريماً فى تعامله مع أبناء أسرة محمد على، وأن ما كتب من عرائض فى حقه للسلطان كان من باب الوشاية .

كذلك عاتبت فاطمة الزهراء زينب ابنة محمد على التى جاءت إلى إسطنبول طمعاً فى الأموال والعطايا برغم أن والدها حين زوجها أعطاها كثيراً من المجوهرات والأملاك، غير أنها لم تحظ بالعناية من السلطانة بمثل ما حظيت به فاطمة الزهراء . والحقيقة أن معارضى عباس جعلوه مشيت البال وموزع الخاطر، ولو لم يكن عباس مخلصاً للسلطان ماولاه على قطر عظيم مثل مصر .

ولهذا رأت السلطانة أنه من الأفضل بقاء الأمراء فى مصر حرصاً على سمعتهم بدلاً من إقامتهم فى إسطنبول، وعليهم أن يحرصوا على رضا عباس ، ويعملوا لخدمته. كما كلفت الأميرة زينب بكتابة خطاب شكر لعباس ؛ لأن الرعاية التى تمتعت بها فى إسطنبول، والمنصب الذى منح لكامل باشا زوجها إنما كان مراعاة لخطر عباس، وأوصتها بالألا تتدخل فيما لا يعنيه، وتتوخى رضا الأميرة فاطمة الزهراء؛ " لأن الظفر لا يتخلّى عن لحمه على حد تعبير السلطانة " (78).

واستمر حال الأسرة على هذا النحو من التفكك وعدم الانتظام وتوتر الصلات بين الأميرة زينب والأميرة نازلى، ولكن آرتين بك توسط للإصلاح بينهما (79) .

واختتمت الأميرة فاطمة الزهراء رسائلها بنصح عباس بحسن معاملة القيو كتحذيره من بعض الأشخاص المقربين للأسرة الذين كان يلجأ عباس إلى مداراتهم

والإفضاء إليهم ببعض أخباره؛ لأنهم يثثون بذور الفساد بينه وبين السلطان. لهذا التمسّت الأميرة فاطمة الزهراء من عباس أن يختار شخصاً آخر يثق به ويتبادل معه الرأى فى المسائل السياسية، ولا يثق بجماعة الأحداث والأطفال⁽⁸⁰⁾. وفى نهاية رسالتها أوصته بضرورة تمزيق عريضتها وعدم إطلاع أحد من معارضيه على مضمونها؛ لئلا تستغل ضدها .

هذا ما تم تداوله من أخبار العائلة من خلال الرسائل بين فاطمة الزهراء وعباس باشا التى يتضح منها موالاتها له على طول الخط، وحرصها على مصالحه.

وإذا طالعنا ما جاء عن عباس فى المراجع نجد الوضع يختلف كثيراً عما ذكرته زوج عمه التى كانت تؤيده بل وتجد له المبرر والأعذار فى كل ما يرتكبه من أعمال، فنجد الراقعى يذكر أنه فى خلال سنّى حكمه الخمس كان يبدو غريب الأطوار، شاذاً فى حياته، كثير التطير، يميل إلى القسوة سيئ الظن بالناس، وكثيراً ما يأوى إلى العزلة، ويحتجب بين جدران قصوره التى تخير لبنائها الجهات الموهلة فى الصحراء، كما أنه أساء الظن بأفراد أسرته، وخيل إليه الوهم أنهم يتآمرون عليه، فأساء معاملتهم، وخشى كثير منهم على حياتهم فرحل بعضهم إلى الأستانة ورحل البعض الآخر إلى أوربا خوفاً من بطشه، واشتدّ العداء بين الفريقين طوال مدة حكمه. وبلغ به حقه على من يستهدفون غضبه أنه حاول قتل عمته الأميرة نازلى هانم، واشتدّت العداوة بينهما حتى رحلت إلى الأستانة خوفاً من بطشه، كما نغم على سعيد الذى كان بحكم سنه ولى العهد، واتهمه بالتآمر عليه، واشتدّت بينهما العداوة حتى اضطره أن يلزم الإسكندرية، وأقام بسرأى بالقبارى . كما سعى لتغيير نظام وراثة العرش ليجعل ابنه الإهامى باشا خليفته فى الحكم بدلاً من سعيد باشا، لكنه لم ينجح فى مسعاه، كذلك انتشرت فى عهده الجاسوسية انتشاراً مخيفاً، فكان الرجل لا يأمن على نفسه من صاحبه وصديقه⁽⁸¹⁾ .

وكان نفى المغضوب عليهم إلى أقاصى السودان من الأمور المألوفة فى ذلك العصر كما حدث مع رفاة الطهطاوى حينما اتسع صدر عباس بالوشاية، ولم ير وسيلة للتخلص منه إلا بإرساله إلى السودان، والسبب فى ذلك هو طباعته لكتابه "تخليص الإبريز"، وما يحتويه من مبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد . وربما لفت الوشاة نظره إلى ما فيه الكتاب مما لا يروق لعباس. ولا غرابة فى ذلك فلو نشر هذا الكتاب فى تركيا فى عهد السلطان عبد الحميد لكان سبباً حقيقياً فى هلاك صاحبه، وربما نفاه عباس ليعده هو وأفكاره وثقافته عن مصر⁽⁸²⁾ . تماشياً مع سياسة عباس الرجعية.

تقارير الأميرة إلى عباس باشا الأول من سنة 1265هـ إلى سنة 1270هـ / 1848م - 1853م.

قبل أن نتناول مضامين مراسلات فاطمة الزهراء إلى عباس باشا لأبد من الإشارة إلى إحدى الرسائل التي وجهتها إلى محمد على من الأستانة بعد سفرها إليها، والاستعدادات التي جرت في هذا الخصوص من إعداد لوازم سفرها وتسليمها الممتلكات الخاصة بزوجها من خزينته الخاصة (**).

الحقيقة أن فاطمة الزهراء كانت على قدر من الذكاء واللباقة، وكان هذا هو سر نجاحها في مهامها التي أكلها إليها كل من محمد على وعباس باشا، إضافة إلى إدراكها الأحداث المهمة والتعليق عليها.

ففي إحدى رسائلها إلى الجناب العالي نجدها ترد على البشرى التي وصلتها من قبل ديوانه العالي بخصوص "إمضاء المصالح الخيرية"، وتقصد بها اتفاقية كوتاهيه، فقد تم الاتفاق على الصلح في 8 إبريل سنة 1833م، بين محمد على والسلطان الذي تخلى لمحمد على عن سوريا وإقليم أدنة، مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز، مقابل أن يجلو الجيش المصرى عن بقية بلاد الأناضول، وصدر فرمان في 6 مايو سنة 1833م بخصوص الاتفاق، إضافة إلى تجديد ولاية إبراهيم باشا على جده مع مشيخة الحرم المكي؛ أى إسناد إدارة الحجاز إلى عهده وتحويله إدارة أدنة⁽⁸³⁾. كما كان إلحاق سوريا بمصر من الأمور الضرورية لتأمين أملاك محمد على، وتماشيا مع تخطيط الحدود الطبيعية للدولة العربية الجديدة⁽⁸⁴⁾.

ولا شك في أن اتساع نفوذ محمد على وابنه إبراهيم من شأنه أن يبيث في نفسها السرور، لذلك عبرت عنه في رسائلها قائلة: "ذلك الأمر الذى يثلج الصدور، ويبث فيها الحبور". ثم أضافت: "ولما كان مقصود جميع الأتباع هو اعتلاء شأنكم وارتفاع منزلتكم، فقد سررنا بهذه البشرى الطيبة سروراً لا حد له، وزدنا فرحاً على فرح". وكان الهدف من تحرير هذه العريضة هو القيام بواجب الشكر والدعاء؛ لأن "وجود ذاتكم الخديوية هى سبب لحياتنا ومصدر لمراتنا"⁽⁸⁵⁾.

استهلت الأميرة فاطمة الزهراء رسائلها إلى عباس بتحذيره من بعض الشخصيات المشبوهة ومروجى الشائعات المقيمين في الأستانة الذين لعبوا دوراً في إفساد العلاقات بينه وبين أسرة محمد على. وعلى رأس هؤلاء أرتين بك الذى تخلى عن الجنسية العثمانية وارتدى القبعة، وأعلن أنه يتمتع بالجنسية الفرنسية، وأحاط نفسه بمجموعة من الفرنسيين والإنجليز، وطالب بحمايتهم، ثم تساءل هو ومن معه: "هل ملك عباس هذه الدنيا حتى ينفذ كل ما تهواه نفسه مما يخالف التنظيمات؟" (كعقوبة النفي).

ولقد غادر أرتين بعد ذلك الأستانة إلى مصر في محاولة منه للحصول على مركز متقدم. وقد صرح لرشيد باشا الصدر الأعظم بأنه سيحاول إقناع عباس للحصول على رضاه وإنعاماته، وإن فشل فسيعود إلى الأستانة، وهذا ما حدث، وأصبح خصماً لعباس⁽⁸⁶⁾. وفي رسالة أخرى أخبرت الأميرة فاطمة الزهراء عباس باشا بأن الأميرة نازلي كفت عن الحديث عنه بأى سوء نظراً للنصائح التى أسدنتها إليها، وبرغم هذا فإنه لا يؤمن جانبها لكثرة تقلبها، فلن " أتركها بدون مراقبة حيث أننى لا أقصر فى خدمة دولتكم " (87).

ولما كانت هذه الخدمات تتطلب كثيراً من المصروفات، فنجدها تشكو حالها إلى عباس من نقص النقود وتحته على ضرورة إرسالها لتتفققها داخل القصر؛ لأن أى شىء لا يتم إلا بالمال، وقد باتت تخشى من افتقار أمرها ووصفها بالبخل، كما حدث للأميرة زينب بنت محمد على التى سخر منها الأصدقاء لضنها عليهم بالمال، كما التمس من عباس البحث عن أشخاص آخرين يثق بهم، ويتبادل معهم الرأى فى المسائل السياسية، وربما أرادت بهذه النصيحة إبعاد عباس عن بعض المنافقين الذين كان يثق بهم، وهم فى الوقت نفسه على علاقة بالدولة العثمانية .

كذلك اشكت الأميرة فاطمة الزهراء إلى عباس باشا من صرافه الخواجة كيورك؛ لأنه لم يصرف لها أموالها بحجة أنه ليس لديه أوامر بذلك، كما أنه لم يتلق اعتماداً بالموافقة على النقود التى صرفت لها بالفعل . لهذا ظلت تلح فى طلب مرتبتها وتسديد ديونها، وأشارت إلى أن استمرار تلك الحالة سوف يفقدها أنصارها الذين تعمل عليهم داخل القصر، إضافة إلى معاناتها من ضيق العيش⁽⁸⁸⁾. ولا نبالغ إذا قلنا إن دور الأميرة فاطمة الزهراء كان يتأرجح بين السفارة والجاسوسة- إن صح التعبير- فنجدها تسعى إلى توثيق علاقاتها بأصحاب المقامات فى الأستانة، وفى الوقت نفسه تحرص على نقل كل ما يدور فيها من أخبار إلى عباس باشا لتبين له مدى ولائها وإخلاصها، فقد انتهزت فرصة سفر إبراهيم أغا لأداء فريضة الحج فأرسلت معه رسالة لتسهيل مهمته وتهيئة أسباب سفره، وحثت مولاهما "أن يتكرم بإصدار أوامره للجهات المختصة بلزوم العناية به والعطف عليه". كما أبدت التزامها بأوامر عباس والسير عليها فيما يخص الشئون المصرية، وتعهدت بإبلاغ التنبيهات والإفادات السنوية إلى الأستانة، كما طالبت عباس باشا بإخطارها بالوجهة التى توافق رأيه لى تعمل بموجبها⁽⁸⁹⁾. وبالفعل حينما وردت أوامر كريمة من عباس باشا قامت الأميرة فاطمة الزهراء بتقديمها إلى السلطنة الوالدة التى بادرت بإرسالها إلى الذات الشاهانية للنظر فى مقتضياتها. وتلقت بالفعل الإجابة التى تفيض بالثناء على دولة الباشا، ثم عاودت الكتابة إليه ناصحة إياه بحسن تصريف أمور دولته، واتخاذ الوسائل التى تسر الذات الشاهانية، وتزيده رضاء حتى ينال أكثر مما نال من العطف. كما أرادت أن تلفت نظره إلى بعض

الأمر حتى يأخذ حذره، فأخبرته بأن المعارضين لسياسته ممن لجأوا إلى الأستانة - وكان قد سدد ديونهم - بدأوا يرفعون العرائض ضده للسلطان، وأنها لم تدخر وسعاً في المدافعة عنه؛ لأنه شملهم بعطفه وإكرامه، حتى أن الصدر الأعظم لن يعر الثقات لعرائضهم لعدم ثقته بأقوالهم. وهكذا حاولت الأميرة فاطمة الزهراء أن تبين لعباس " أنها ليست مقصرة في تأدية الخدمات إلى دولته، بما أوتيت من القوة وطلاقة اللسان " (90). كما أنها لم تدخر جهداً في إبلاغه بتمنيات السلطنة بضرورة القيام بالأعمال الخيرية حتى لا تتعرض المصلحة للخلل وعدم السماع للمعارضين والعفو عنهم بين الحين والآخر، " حيث يوجد في ذلك ما يسكنهم " (91). ونستشف من جنابات تلك الرسالة رغبة السلطنة في أن يسير الباشا بالعدل في الحكم حتى لا تتعطل المصالح، إضافة إلى إسداء النصح له بالتغاضى عن الصغائر.

وإزاء محاولات الوقعة بين عباس ورشيد باشا الصدر الأعظم، فقد نفت الأميرة فاطمة الزهراء الأقاويل المغرضة التي نسبت إلى عباس زوراً، وأكدت محبة عباس لأخيه الصدر الأعظم، وثقته به. حتى إنه لم يصدق ما قيل، وعده مكيدة من قبل الحساد لإفساد الود بينهما، واختتمت رسالتها قائلة: " لقد حاولت ألا أبين أنى منحاظة إليكم بصفتي زوج عمك، وقد أوصيته بعدم التأثر مما يقال من أحاديث لى لا تقسد الود بينكما فأقسم بحبه لك كأخيه " (92).

ويبدو أن هذا الموضوع كان على درجة كبيرة من الأهمية، بحيث تناولته الأميرة فاطمة الزهراء أكثر من مرة في رسائلها، محاولة أن تحض عباس باشا على حسن معاملة رشيد باشا لتفويت الفرصة على الأجانب والمعارضين، خوفاً من إفساد العلاقات فتسحق الفرصة للأجانب بالتدخل، فنضيق مصر من أسرة محمد على. كما نما إلى علم الأميرة من المقامات العالية أن عباس باشا صرح بأنه سوف يعمل على عزل رشيد باشا بإنفاق الأموال الكثيرة.

وقد حذرت الأميرة فاطمة الزهراء عباس باشا من مغبة هذا الجفاء الذى يثار ضده من معارضية فى الأستانة ومصر؛ وهو مما يحملهم على تقديم الشكاوى، باسطين فيها أنواع الذم واختلاق الأكاذيب والأقاويل. كما نقلت إلى رشيد باشا ما صرح به عباس من تكذيب المشيعين الذين روجوا لعزله، واتهموا عباس باشا بأنه سينفق فى ذلك مليوناً من القروش. وبرغم هذا ظل الصدر الأعظم متأثراً، فأوصت فاطمة الزهراء عباس باشا بضرورة مداراة الصدر الأعظم واستقطابه (93)، ثم ألحقت بخطابها السابق خطاباً آخر تحيط فيه عباس باشا علماً بما يحاك ضده من مؤامرات لعقد المجالس السرية المتعددة من قبل الدول الأجنبية وغيرهم وممن يقيمون بالأستانة، حتى إن بعضهم ذهب إلى حد ضرورة نزع حكم مصر من أسرة محمد على، ورأى فريق آخر مساندة سعيد باشا وتعيينه، وإبقاء عباس، كما كان

فى السابق، وتخصيص مرتب له قدره اثنا عشر ألف كيس سنوياً، وقد ظلت هذه الأقاويل فى طى الكتمان حتى ظهر الجفاء بين عباس والصدر الأعظم ؛ وهو مما أتاح الفرصة لظهورها، ولهذا نصحت الأميرة عباس باشا بالتقرب من السلطان حتى يفوت الفرصة على مندوبى الدول الأجنبية للوقعة بينهما، كما أوصته بحسن معاملة رشيد باشا بالرفق والسياسة، خاصة بعد أن تسبب أرئين فى التفريق بينهما، كذلك رأت ضرورة الكتابة إلى عباس وإسداء النصح إليه خوفاً عليه مما قد تسببه أعماله من إزعاج لدى المقامات فى الأستانة، وما قد يترتب على ذلك من نتائج وخيمة تمس وضعه بوصفه حاكماً.

منها على سبيل المثال نفيه لطائفة من النساء والموظفين بغير مبرر أو حجة مقبولة، وادعى أنهم يقومون بعمل السحر له. وقد ضاق رشيد باشا بتلك الأمور ذرعاً، وأضاف أنه لا يصح وقوعها، وإذا كنا نتستر على بعض الأفعال المخالفة فى أوائل حكم عباس بحجة حداثة عهد الوالى بالولاية ، فإنها توالى بدون انقطاع حتى إن أهل مصر أخذوا يرسلون العرائض، ويزعجون بها كل جهة، كما ذاع خبر وفاة حسن باشا كتحذا عباس أيضاً !!

لهذا رأت الأميرة فاطمة الزهراء ضرورة مناشدة عباس بضرورة معاملة الرعية بالحسنى وعدم الإساءة إلى الشخصيات ذات الحيثية، ولو لمدة محددة حتى تهدأ الأمور. ونصحته بمعالجة الأمور بالسياسة تماشياً مع مصالح مصر ومصالح السلطان. كما طالبت بضرورة إبعاد بعض المفسدين عن الذين يدعون صداقتهم له وهم مدفوعون إلى ذلك طمعاً فى المال كما اقترفوا أموراً شائنة لإفساد ذات البين، ومنهم على سبيل المثال نورى أفندى الذى لقب "بلص الأستانة". وفى نهاية رسالتها حضرت عباس باشا على التعامل بالاحترام مع رشيد باشا واستئذانه فيما يقدم من رسائل إلى الوزراء فى الأستانة، وعقبت قائلة: "إنه ليس من مقامى أن أنصح لكم، ولكنى أردت مجرد الإخطار، والأمر لمولانا ولى النعم".

كذلك حاولت أن تتقل إليه رؤية الأستانة عن دولته ليأخذ حذره، ونوهت بجهودها الجبارة فى معالجة الموقف لكسب صداقة الصدر الأعظم وتطبيب خاطره والمحافظة على الأصدقاء الذين تم استقطابهم، وقد قالت فى نص رسالتها: " لقد قيل كلام كثير فى شأن دولتكم، وحدثت أمور غير مرضية، ولكننا بذلنا جهد طاقتنا، وعالجنا الموقف بجهود جبارة". حتى إن كتحذا عباس نوه بمجهودات الأميرة قائلاً: " لولا وجودك هنا فى الأستانة لتعسرت أمورنا وتعدتت ". كما حثته الأميرة على ضرورة مداينة الصدر الأعظم وعدم إغضابه؛ لأنه لم يسىء إلى دولة الباشا إساءة ظاهرة، كما أنه صديق وفى بمعنى الكلمة، "وإذا كنا قد فزنا بأصدقاء غيره؛ فإنه إذا أظهر عداوته فإن الأصدقاء الذين اقتنيناهم سوف يتبعونه فى المعادة ويعادوننا " (94).

وكما استخدمت أسلوب الترهيب فقد استخدمت أيضاً أسلوب الترغيب، وأخبرت عباس باشا بما أشار إليه السلطان من ثنائه عليه وحب له، فقد ذكر السلطان أن عباس باشا "أحب الناس إلى قلبه أكثر من وزراء سلطنته، وأعرب عن أمله فى التزامه بتطبيق التعليمات الخاصة بالتنظيمات" حتى لا يضطر إلى معاملته بالسوء"، كذلك أشار السلطان إلى التزام عباس بمهام منصبه وعدم التعدى على الألقاب أو مخصصات الأستانة؛ لأنه رفض تسمية أورتطين (*) بالأسماء الموجودة فى الأستانة تأديباً منه، إضافة إلى أنه كان يخيف المذنبين فى مصر بقوة السلطان الذى كان عباس يستمد هيئته ومكانته منه. وبرغم إطراء السلطان على عباس فإن زوجة رشيد باشا اشتكت من أحواله الغربية حينما تغيرت نفسه وأفشى أمر العطية التى كان قد أرسلها إليها، وهى حجر من الماس ومائتى كيس (95). وقد دافعت عنه الأميرة فاطمة الزهراء كعادتها، وذكرت أنه اعتاد على منح الهدايا منذ عهد جده، وكان يعد رد الهدية عيباً كبيراً (96)، كما نصحت الأميرة عباس باشا باحترام أسرة محمد على، وعدم إتاحة الفرصة لأرتين الأرمنى أو الثقة به لسعيه لبث الفرقة بينه وبينها حتى لا تخبر عباس باشا بما يدور فى الأستانة من أمور. كذلك أشارت إلى ما قام به عباس من منح بعض النياشين لبعض الرجال لإرضائهم. وفى الوقت نفسه تعذيب البعض ونفى البعض الآخر. فإذا كان هؤلاء من المجرمين فإنه ينبغى ألا يشملهم بعطفه منذ البداية ويمنحهم الرتب المختلفة، وعقبت على ذلك قائلة: " ويحزننى أن يقدم على نفيهم وتعذيبهم من تلقاء نفسه بدون استئذان " (97). وهى بذلك تشير إلى قوة السلطان الذى يجب أخذ رأيه فى كل صغيرة وكبيرة قبل الإقدام على أى عمل .

ويبدو أن هذه المسائل إضافة إلى انتقال عباس وإقامته فى الدار البيضاء، وهو مقر جديد اتخذ ليقم فيه بعيداً عن الضوضاء؛ إذ يبعد عن القاهرة بمسافة 18 ساعة، قد سبب استياء للسلطان، وعده تعطيلاً للمصالح لبعده عن العاصمة لفترة طويلة.

والواقع أن تنقل الولاة فى البلاد كان أمراً متعارفاً عليه، خاصة وأن محمد على كان يقوم برحلات عدة تيسيراً للمصالح، وهذا من التقاليد القديمة (98). ولكن استغله الوشاة فى عهد عباس وعدوه نقطة ضعف فى إدارته لزعة مكانته. كذلك لم تغفل الأميرة أمورا أخرى كانت على درجة من الأهمية وهى إرسال مندوبين من قبل عباس إلى الأستانة لمقابلة رشيد باشا لإطلاعه على أمور الولاية، وفى الوقت نفسه تلقى التعليمات لإيصالها إلى عباس .

والحقيقة أن المهمة التى كلف بها كل من كانى باشا والقبو كتحذا لم تكن سهلة. وقد أشادت الأميرة فاطمة الزهراء بأهمية الدور الذى قام به كليهما، فقد أطرت على هذين الشخصين حين قالت: " اتسم كانى بالدراية وصادق الولاء،

وكان يعمل طوال إقامته في إسطنبول على تسوية خدمات ولى النعم بقدر ما يسعه، ويبادلنى الرأى فى المسائل التى تخص أفندينا، أما القبو كتحذا فهو الآخر يدين بالولاء والعبودية ولا يبيح لنفسه قصورا فى خدمة دولتكم، وسيعرض عليكم الرسائل التى حملوها بشأن التنظيمات، وإنكم ستسرون بذلك⁽⁹⁹⁾. والحقيقة أن أحوال مصر لم تغب عن الأميرة برغم وجودها فى الأستانة، وقد أشارت فى إحدى رسائلها إلى المساوئ التى تعرض لها أهالى مصر من حيث افتقادهم الأمن وحرية التنقل أو امتلاك الأموال، ثم أوصت عباس باشا بالألا يتبع الأسلوب نفسه مع الشخصيات الموفدة من قبل السلطان حتى يتجنب إثارة أولى الأمر عليه.

وقد أبدت الأميرة استعدادها للمشاركة فى إصلاح الأحوال فى مصر، وذلك بالاتفاق مع عباس باشا أو مع قبو كتحذا، فقد علمت أن الهدف من تطبيق التنظيمات فى مصر إنما يراد به "حفظ الأرواح والأموال والأعراض، ومنع الحبس والضرب الشديد بدون وجه حق، وتحسين أحوال الأسرة"، وأبدت استعدادها لإيجاد حل لمثل هذه المسائل وتسويتها⁽¹⁰⁰⁾.

والحقيقة أن التنظيمات الخيرية كانت تهدف إلى تحديث الدولة وكسب مساندة الدول العظمى وبريطانيا بوجه خاص فى مواجهة أعدائها. وقد حاولت الدولة العثمانية تطبيق تلك التنظيمات فى مصر التى تضمنت وعد السلطان بإقامة العدالة فى أملاكه، وتحديد كمية الضرائب، وتنظيم تحصيلها، وتأمين المرء على حياته وماله وعرضه، كما تضمنت تحديد مدة الخدمة العسكرية، وكان عباس يرى أن تحويل ملفات الإعدام إلى إسطنبول للحكم فيها من شأنه أن يهدد الأمن والنظام فى البلاد، على أساس أن سرعة تنفيذ الأحكام من شأنها أن تردع المذنبين. لهذا قاوم تطبيق التنظيمات فى مصر إلا إذا عدلت بحيث تتماشى مع عادات البلاد وتقاليدها وما جرى به عرف الولاية فيها، وأرسل نوبار إلى إسطنبول للتفاوض مع الباب العالى بشأن هذه المسألة. وقد نفذ نوبار فى الأستانة مهمته على خير وجه، وحصل على مساندة السفير البريطانى لموقف عباس بشأن مسألة القصاص التى سويت لصالحه⁽¹⁰¹⁾. وعلى الجانب الآخر نجد أن الأميرة فاطمة الزهراء قد كتبت إلى عباس فى هذا الخصوص، بناء على أمر من السلطنة تستحثه على أن يتنازل عن طلبه الخاص بمنحه امتياز تنفيذ عقوبة الإعدام بدون استئذان السلطان⁽¹⁰²⁾، وكانت تسعى من جانبها لأن يلتزم عباس بالتنظيمات ويعمل بمقتضاها.

وقد كان هناك تناقض بين آراء نوبار والقنصل البريطانى فى شأن عباس، ففى حين نجد الأول يذكر أن عصر عباس قد تعرض للنقد الشديد وأنه كان موضعاً للتجنى والأحكام الخاطئة، فقد سادته الأمن بالشكل الذى لم تعرفه مصر، كما يمتدح تخفيضه لنفقات الدولة وشدة حرصه على مصالح البلاد. ويمكننا أن

نتبين حقيقة حكم عباس مقارنة بما سجله نوبار بما كتبه قنصل بريطانيا إثر وفاة عباس، فقد أكد حمق سياسته وتكديسه الأموال فى خزائنه؛ وهو مما تسبب فى إفلاس الدولة، وكانت له ميول طفولية فى البناء والمفروشات؛ وهو مما جعله ينفق كثيراً من المال فى الوقت الذى لم يكثر فيه بالإدارة والخدمات العامة وبمرتبات الموظفين والجيش، ووصل إلى حد الامتناع عن دفع مرتباتهم . ويعزو إتجاهاته إلى كونه الوحيد فى أسرة محمد على الذى لم يتلق تعليماً أوروبياً أو يلم بلغة أوروبية أو يتوجه إلى أوروبا، فقد تربى على الطريقة التركية فلقنوه كيف يكره أوروبا (103) .

وهذا ليس غريباً على حكام الشرق فى ذلك الأوان، فقد سبق أن اتبع محمد على الخطى نفسها، حين حجز مرتبات الموظفين؛ لأنهم حققوا الثراء من خلال وجودهم فى وظائفهم، وكلفهم بدفع الضرائب عن القرى العاجزة . كما أن محمد على نفسه تربى على الطريقة التركية لكنه لم يكره الأجانب، واستخدمهم فى بناء دولته الحديثة، ولم يتلق تعليماً قط لأنه كان أمياً، ولم يتعلم القراءة إلا فى سن الأربعين؛ إذن فالحجج التى ساقوها ضد عباس تعد حججاً واهية. ومن الأمور التى تلفت النظر فى خطابات الأميرة فاطمة الزهراء ذلك السؤال الذى وجهه جلالة السلطان إلى قبو كتحذا عباس، "عن حال الباشا وشئون الزراعة فى مصر" (104) .

وهذا يعنى أن السلطان كان يشير إلى أهمية مصر بوصفها بلداً زراعياً، خاصة أن محمد على كان حريصاً على احتكار الزراعة ليملاً خزائنه بالأموال اللازمة لإصلاحاته المختلفة، فهو يستفسر ضمناً عن خطى عباس فى ذلك المجال: هل سار على درب جده أم كان له مسار مختلف ؟

الحقيقة أن الوالى أراد الاحتفاظ ببعض مظاهر سياسة محمد على الاحتكارية، غير أنه وجد مقاومة شديدة من القناصل والتجار الأجانب حين منع الفلاحين من بيع محاصيلهم، للتجار الأجانب قبل سداد قيمة الضرائب المستحقة وإلا صودرت محاصيلهم وفهم الأجانب أنه يعنى العودة إلى نظام الاحتكار؛ لهذا احتج القنصل البريطانى فى القاهرة وطالب السفير البريطانى فى إسطنبول بإرسال التعليمات لوالى مصر للإقلاع عن تمزيق معاهدة بالطة ليمان . كذلك حرصت الأميرة فاطمة الزهراء على إعلام عباس بما يدور فى الأستانة من تعيين بعض الأشخاص فى المراكز المرموقة والوظائف التى تستجد أولاً بأول، فأخبرته بتعيين عالى باشا ناظر الخارجية السابق فى منصب الصدارة العظمى ورشيد باشا مشير الخاصة السابق مشيراً للطوبخانة العامة وخير الدين باشا والى أضرورم السابق مشيراً للضبطينية وعبدى باشا والى البلاد الكردية مشيراً للخاصة ووجيهى باشا والى أنقرة السابق والياً على البلاد الكردية ومحمود باشا من أعضاء المجلس العالى والياً على أنقرة وفؤاد أفندى المستشار السابق مشيراً للخارجية، مع ضم النظارة وشوكت بك

البقلجى السابق مستشاراً للصدارة العظمى (105) ، كما أخبرته بفصل فؤاد أفندى من وظيفته وتعيين رفعت باشا ناظراً للخارجية بدلاً منه. ولما كان هذا الأخير من أصدقائها فقد ذهبت لتهنئته وقابلته شخصياً، فسر بذلك سروراً بالغاً ، كما أخبرت عباس باشا بفصل كامل باشا وتعيين حضرة فتحي أفندى باشا مكانه ناظراً للتجارة (106). ومن الشخصيات المهمة الذين تقلدوا وظائف مرموقة فى الأستانة أيضاً محمد على باشا وزير البحرية - قبودان دريا- الذى حل محل الصدر الأعظم على باشا وخلفه فى وزارة البحرية محمود باشا مشير الخاصة السابق، وتم عزل نافذ باشا وزير المالية وخلفه مختار بك ناظر مصنع المدافع - الطوبخانه - وأسندت نظارة مصنع المدافع إلى راسخ أفندى من أعضاء دار الشورى، وأفادت عباس باشا بأنه لم يعلم بعد بأسباب عزله، وإن كان هناك بعض الأفراد تم عزلهم لرفضهم الذهاب إلى مقر عملهم وتنفيذ أوامر السلطان مثل وصفى باشا الذى نفى إلى " تكفور طاغى " كما تم عزل عزت باشا وحل محله كامل باشا وزيراً للتجارة بالتماس زوجته زينب هانم ابنة محمد على ، " أما نور الله بك " خادمنا وقربينا فكان عضواً فى مجلس النافعة فى دار التجارة ، وأراد كامل باشا أن يعينه مكتوبجياً فى وزارة التجارة بمرتب أربعة آلاف قرش، ليكسبه إلى صفه ويطلع منه على ما يهمه من الأنباء، غير أنه رفض الوظيفة بحجة أنه عين لخدمة عمته " يقصد فاطمة الزهراء " (107). وبناء عليه كاتبت الأميرة عباس باشا مذكرة إياه بأنه قد آن الأوان أن يحصل على نصيبه من النعم لأنه لم يحصل إلا على مخصصاته فقط. وقد استعطفت عباس باشا أن يشملها برعايته وعطفه وإرسال خطاب توصية إلى الصدر الأعظم لتعيينه فى عمل مناسب؛ "لأنه يفخر بعبوديته لكم، ويبدل كل جهده خالصاً مخلصاً" (108) .

وحاولت الأميرة فاطمة الزهراء أن تبعث الطمأنينة فى قلب عباس حينما أخبرته بأن رفعت باشا ناظر الخارجية أبلغها بأن مصالحه قد سويت كما ينبغى أن تسوى، وصدرت الإرادة بها. وعقبت فاطمة الزهراء على ذلك قائلة: " صدرت المكاتبات بأسلوب جيد جداً، وأخذت الحيرة أعداءكم لما علموا أن جميع مصالحكم وشئونكم سويت وفقاً للمطلوب " (109) .

كما أفادت فاطمة الزهراء عباس باشا بسرور السلطان منه سروراً لا حد له بسبب تفضله وإرساله أربعة عشر ألف جندى من جنود الأسطول، وتستطرد قائلة: " وقد قابل جميع سكان إسطنبول همة دولتكم المبذولة فى إرسال الجند بكثير من التقدير والاستحسان قائلين: " أدام الله تعالى والى مصر باشا مدة طويلة وأبقاه للدين والدولة، ووقفه لكثير من الأعمال النافعة فى خدمة مولانا السلطان " . وقد عقبت على ذلك قائلة: " مما لا شك فيه أن ذلك يسر أصدقائنا ويميت أعدائنا غيظاً " (110).

والسؤال الذى يفرض نفسه: ما السبب الذى دفع عباس باشا إلى إرسال تلك الأعداد إلى إسطنبول هل هو رمز لطاعة السلطان، أم كانت الدولة فى هذه الفترة تحتاج إلى تلك القوات لخوض حروب بحرية معينة ؟

فى الحقيقة أن السلطان عبد المجيد قد طلب من عباس باشا أن يمدّه بالجند والأساطيل حينما نشب القتال بين تركيا وروسيا سنة 1853م ، ولبنى عباس طلبه فأعد حملة مؤلفة فى بدء الحرب من 20.000 مقاتل بقيادة سليم باشا فتحدى (أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء إبراهيم باشا فى حروب سوريا والأناضول) ، واتجهت الحملة إلى الأستانة، ثم إلى ميادين القتال على نهر الدانوب، وربط الجيش المصرى فى ساستريا، وكان الروس يهاجمونها، وأبلى المصريون بلاء حسناً فى المدافعة عنها، وأقاموا بها حصناً عرف "بطابية العرب". واستطاع الجيش المصرى أن يكسر هجمات الروس. وهكذا ظهرت بسالته فى حرب القرم، وهى الحرب الوحيدة التى خاضت مصر غمارها فى عهد عباس (111). وقد اعتادت تركيا الاستعانة بالأسطول المصرى فى حروبها السابقة؛ كالحملة المصرية على كريت والمورة وغيرها . ثم تنتقل فاطمة الزهراء من حديثها عن مساعدة عباس للسلطان فى حرب القرم إلى تتبع علاقته مع سعيد باشا وتتافس كل منهما على الحكم، وكيف أن كليهما كان يتربص بالآخر، فقد قام عباس بنفى بعد أنصار سعيد باشا فى حادث ضبط الأسلحة فى إحدى القرى التابعة للأمير سعيد باشا. ويبدو أن الأميرة لم يكن لديها علم بتلك الحادثة، فأرسلت تستفسر عن مدى صحة هذا الخبر، ورأت أنه من الأفضل عقد مقابلة بين سعيد وعباس، وكسب رضاه بدلاً من إقامته فى الإسكندرية (112)، كما تعرض عباس لمهاجمة خصومه فى الأستانة، وترويج الشائعات المرجفة ومنها عزل عباس فى خلال إسبوع وتولية سعيد. وقد وقع كتاب نازلى الذى يتضمن هذا الخبر فى يد عباس وأمر بنسخ صورة منه وأرسل الأصل إلى سعيد باشا، وقد تعجبت فاطمة الزهراء من جرأتهم وإرسالهم تلك المكاتبات التى كان الهدف منها إثارة غضب عباس ودفعه إما إلى الهرب وإما أن يهم بقتل أحد وإما يأتى بأمر مناف للرضا العالى؛ وهو مما يعرض مركزه للخطر. وهذا ما كانوا يسعون إليه تمهيداً لإبعاده. والحقيقة أن فاطمة الزهراء كانت على دراية تامة بالأعييبهم، فأوضحت للسلطانة أن الأميرة نازلى لا تخجل مما تفعل ولا تحس بالعار إذا اكتشف كذبها، ولا يوجد مخلوق فى الدنيا يضارعا فى فساد الخلق، وتتقوّل بكل ما يأتى على لسانها من فاحشة القول، كما كانت تدعو على والدها وتتمنى وفاته. " وقد سمعتها تردد هذا التمنى مراراً، كما أنها ذبحت الذبائح وأمرت بالعزف على الآلات الموسيقية عند وفاة إبراهيم باشا "، وأردفت قائلة: " إن مولانا صاحب الشوكة لا يستطيع إشباعها فهى حينما قدمت للسلطان هدية

مقدارها سبعة آلاف من الكيسات منحها قصرًا ادعت أنه قصرًا باليا (113) ومعنى ذلك أنها تتهم على السلطان وتتهمه بالبخل وهذا يتنافى مع أخلاق الأميرات وجرأة في تصرفاتها لا تحمد عقباها .

ويبدو أن هذه الشخصية قد اعتادت على سوء التصرف، بل إن نواياها العدوانية جعلت ذهنها يتفق عن محاولة لإيذاء عباس بشئ الطرق حين عمدت إلى تزيين أحد جوارياها ببعض الحلى والمجوهرات، وكانت تظن أنها ربما ترقى بها إلى مرتبة الزوجية، وكانت هذه الجارية مصابة بمرض معد، وكانت ترغب في تزويجها لعباس. غير أن فاطمة الزهراء أدركت هذه الحيلة، وأرسلت رسالة تنصح فيها عباس باشا بالابتعاد عن تلك الجارية حرصاً على صحته. وقد استمر المعارضون لعباس في ترويج الشائعات، وادعوا توليهم للوظائف المهمة في الدولة كنظارة الحربية والمالية، حتى أخذ عباس يتساءل عن حقيقة الموقف في الوقت الذي كان مشغولاً بتجهيز أماكن نزول العساكر النظامية الشاهانية المقرر إرسالهم إلى الحجاز عند وصولهم إلى مصر، وتقديم لوازم الاحترام والترحيب، وصرف الأموال اللازمة لذلك، والحرص التام على راحة الجنود.

وعندما نما أمر تلك الشائعات إلى السلطان طالب الصدر الأعظم بالتحقيق فيها (114) ، كما أثر ذلك في السلطنة أبلغ تأثير، وطالبت فاطمة الزهراء بالكتابة إلى عباس للاستفسار عن حقيقة الموقف وأوصتها " بألا يلتفت للقليل والقال، وليكرس وقته في مصالحه فلن ينال منه أحد ما دام مستظلاً بظلنا، وسننظر في تسوية مصالحه. وإن شاء الله تكون النتيجة خيراً ". وبناء عليه كاتبت الأميرة فاطمة الزهراء عباس باشا، وأخبرته بأن سعيد باشا لم يلق العطف والرعاية، حتى أنه لم يسمح له بالعودة على إحدى بواخر إسطنبول، وأوصى بأن يعود على أحد البواخر المصرية " رشيد ". وقد تسبب هذا الموقف في مرض الأميرة نازلي لتأثرها من عدم العطف عليه (115) . والحقيقة أن سعيد كان يعد العدة للتخلص من عباس وإقصائه عن الحكم والحلول محله. ونستطيع أن نستشف ذلك من خلال رسالة الأميرة فاطمة الزهراء حينما أخبرت عباس بأنه " قد جمع في الوجه البحرى جنوداً ومدافع بقصد إثارة الفساد والاضطراب فى الداخل " (116)، هذا إضافة إلى سعيه لدى الباب العالى للحصول على رتبة المشيرية لإعلاء قدره غير أنه قوبل بالرفض لإحساسهم باتجاهاته العدائية تجاه عباس، كما لقي كامل باشا المصير نفسه حين عزل من وزارة التجارة وعين والياً على أزمير. وبرغم هذا وعدت الأميرة فاطمة الزهراء عباس باشا بأنها ستفاوض مع أدهم بك الذى أرسل من طرف عباس لبحث موضوع سعيد وفشله فى الحصول على بغيته (117). وفى محاولة من فاطمة الزهراء لإرضاء السلطان عن عباس، ورغبة منها فى تسوية جميع شئونه فى المستقبل وفقاً لمتطلباته وقهر خصومه وكسب عطف الجميع

ومحبتهم؛ فقد أخبرت عباس باشا أن السلطان فى حاجة إلى بعض الأموال، وأنه لا يريد الاقتراض من أوربا، ولتحقيق ذلك قام بإرسال مختار بك فى مهمة للحصول على المال من مصر، وطلب منها تسهيل مهمته بإرسال خطاب توصية، برغم أنه يعلم أن الموفد المصرى قد فرغت منها فى الوقت الحاضر كمية كبيرة من المال كانت الخزينة المصرية قد فرغت منها فى الوقت الحاضر كمية كبيرة من المال لدفعها إلى أعضاء الأسرة، فمن الممكن تأجيل سداد الأموال إليهم لمدة أربع أو خمس سنين وإن سددت فمن الممكن أن تسترد منهم⁽¹¹⁸⁾. ولخشيتها من تسرب تلك الأقوال إلى معارضيه ومعارضى عباس ناشدته ألا يطلع أحداً على رسائلها الموجهة إليه، فربما تنامى إلى علمها أن هناك تسرباً لتلك الأخبار إلى غير المسؤولين أو الحاقدين، فأثرت كتمانها ضمناً لحسن سير الإدارة، وعدم تدخل الواشين وغيرهم، ومن هذا المنطلق أخذت فى توصية عباس بأن يوثق علاقاته بالشخصيات التى تسعى بإخلاص إلى خدمته كفؤاد أفندى مستشار الصدر الأعظم وأدهم باشا المقيم فى الأستانة اللذين سافرا إلى مصر لبذل الجهود لخدمة دولته، وهما يعدان من أتباعه المخلصين، وبناء عليه " فهما يستحقان عطف فخامتكم ". وأهابت بعباس أن يظهر الموافقة والعطف والرعاية لإزالة التوتر الموجود بينه وبين رشيد باشا، من أجل تسوية مطالبه، " كما أنه سيؤدى إلى ارتياح مولانا السلطان ". وفى بعض الأحيان لم يصغ عباس لنصائح فاطمة الزهراء، بدليل أنه عندما أشارت عليه بمواساة رشيد باشا بسبب عزله وتهنئة رعوف باشا للحلول محله لم يفعل، بل أرسل خطاباً أساء فيه إلى رشيد باشا ؛ وهو مما جعله يعلن عداوته له⁽¹¹⁹⁾. وخوفاً على مصلحة عباس أشارت عليه مرة أخرى بضرورة معاملة الموفدين من إسطنبول معاملة حسنة مثل فؤاد أفندى فهو ليس كبقية الموفدين؛ لأنه منتخب الأوربيين ومستشار الصدر الأعظم وموضع ثقة الدولة العلية، ولاشك فى إن مجيئه إلى مصر يعنى أنه مكلف بمهمة كبيرة، وأوصته بالاستعداد لحسن مقابلته، وعدم إطلاعه على رسائلها لكى لا يكون وبالاً عليها⁽¹²⁰⁾. وربما استشعرت الأميرة أن دورها لم يكن شرعياً لقيامها بدور التجسس لصالحه، فخشيت من افتضاح أمرها أمام تلك الشخصية المهمة، كما أخبرت عباس باشا بموقف السفير الإنجليزى منه حين صرح قائلاً : نحن نعرف أن عباس باشا صديق موال للدولة العلية، وإذا كانت غير راضية عنه فنحن أيضاً لا نعترف به⁽¹²¹⁾. كما أنها لم تدخر وسعاً فى إحقاق الحق وإعطائه لصالحه، فجددها فى إحدى رسائلها الموجهة إلى عباس تستحثه على النظر فى إحدى القضايا بمعرفة الشرع الشريف والمجلس لتسديد بعض الأموال التى استولى عليها المدعو السراج حاجك بدون وجه حق، وهى مبالغ خاصة بالأيتام، ومبالغ أخرى هرب بها إلى مصر. وقد قدمت عريضة إلى الباب العالى بشأنه فصدر أمر سام إلى " دولتكم بالبحث عنه وتحصيل الأموال وإرسالها إلى إسطنبول " ⁽¹²²⁾.

كذلك أخبرت عباس باشا بما أشيع من استياء السلطان منه ، وكيف أن الوالدة السلطانية تسعى جدياً لإزالة أسباب هذا الخلاف بينهما، وعدم تطوره؛ إذ أوصت عباس باشا بضرورة بذل الجهد لإرضاء سموه قائلة: " ليس من شأن العاقل أن يترك حسن السياسة مع ولى الأمر اعتماداً على الإنجليز وحدهم ". وربما كانت تشير فى ذلك إلى منح عباس امتياز خط السكك الحديدية للإنجليز بدون استئذان جلالة السلطان (123) .

وقد حاولت فاطمة الزهراء الدفاع عن عباس حين نفت الأمر برمته، وإن كانت الأميرة زينب قد صرحت بأن عباس باشا أنشأها لتكون مورداً له، لهذا عادت الأميرة الكتابة إلى عباس للاستفسار عن حقيقة الأمر، فإذا كان قد وعد الإنجليز بإنشائها فليبلغ هذا الوعد، وإن كان كذباً فليخبرها لتكذبه، وكان رد عباس: "أنه لا يستطيع أن يمنح ملك السلطان أو الطريق بدون إذن من جلالتة"، وقد قوبل هذا التصريح بالارتياح فى عهد السلطان عبد المجيد (*) الذى كان عباس حريصاً على إرضائه (124) .

وترجع معارضة السلطات التركية لمشروع مد السكك الحديدية على أساس أنه سيفصل مصر عن الدولة العثمانية، ويلحقها بإنجلترا وأوربا (125). غير أن ستيفنسون حاول أن يؤثر فى عباس، وتبنى إنشاء السكك الحديدية على أساس أنه مشروع بريطانى (126) .

والحقيقة أن إنشاء السكك الحديدية سواء بأموال مصرية أو بتمويل بريطانى، وسواء كان ملكاً للحكومة المصرية أو ملكاً لغيرها، كانت فكرة بغضه تماماً لدى عباس الأول الذى كان يرى أنها ستؤدى إلى ازدياد النفوذ البريطانى فى مصر بدرجة كبيرة (127). وكان يسير فى ذلك على درب جده فى رفض مشروع القناة البحرية، وإنشاء الخط الحديدى غير أن المؤامرات التى حيكّت ضده بعد توليه الحكم بفترة قصيرة، سواء فى إسطنبول من رشيد باشا الصدر الأعظم أو من بعض أفراد أسرة محمد على، على نحو ما ذكرنا، جعلت مرى Murray ينتهز فرصة المعارضة المتزايدة تجاه عباس فى القسطنطينية لزيادة النفوذ البريطانى فى مصر، والوقوف فى صف عباس وتأييده، لجعله يوافق على تنفيذ خط سكك حديد القاهرة الإسكندرية مقابل ذلك التأييد. وقبل أن يصدر فرمان السلطانى بالإذن لعباس ببناء الخط الحديدى فى نوفمبر 1851م، تمكن ستيفن بك Stephen ناظر الخارجية المصرية من إبرام عقد إنشاء السكك الحديدية مع مندوب ستيفنسون على أن يتم ذلك خلال ثلاث سنوات، وأن يكون ملكاً للحكومة التى تتولى تشغيله بمعرفتها. وأصدر أمره إلى كتحذا باشا فى 2 ذى القعدة 1267هـ/ 26 أغسطس 1851م، بأنه تقرر إنشاء سكك حديدية بين مصر والإسكندرية، وبدء العمل فيها،

وإنشاء ثلاث مكاتب لتنسيق العمل، وتعيين مدير له لتشغيل المهندسين الذين جاءوا من إنجلترا خصيصاً لهذا الخط ومراقبة أعمالهم، وتنفيذ مطالبهم على حسب ما ينص العقد، وعين في هذا المنصب رفعتلو عبد الله بك؛ لأنه على دراية بهذا المنصب وجدير به. وقد عدت الدوائر الأجنبية في مصر أن منح فرمان لعباس يعد نصراً للنفوذ البريطاني على النفوذ الفرنسي الذى اتهم مرى بأنه استغل فرصة معرفته باللغة التركية للحصول على الخطوة لدى عباس، واستغلال صداقته استغلالاً سيئاً⁽¹²⁸⁾. ومن الطبيعى أن يتحامل الفرنسيون على عباس بسبب تضاؤل نفوذهم لاستغنائهم عن معظم خبرائهم؛ لأن الوطنيين منهم كانوا يكرهون كل ملك أو أمير يقرن اسمه أو عهده بتضاؤل النفوذ الفرنسي فى بلاده⁽¹²⁹⁾.

وهكذا ازداد النفوذ البريطانى على يد المستر "مرى" القنصل البريطانى فى مصر. وقد يكون لكفافته دخل فيما ناله عند عباس من النفوذ، وقيل إنه كان يستعين به فى السعى لدى حكومة الأستانة بوساطة سفير إنجلترا لتغيير نظام وراثة العرش كى يتول إلى ابنه الإلهامى، أو أنه كان يستعين به وبالحكومة الإنجليزية ليمنع تدخل حكومة الأستانة فى شئون مصر، حينما كانت تريد تطبيق القانون الأساسى المعروف بالتنظيمات الخيرية على مصر، كما كان لمستر "مرى" تأثير ظاهر فى اتجاه عباس إلى إصلاح طريق القاهرة السويس، وتسهيل المواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر بوساطة السكك الحديدية التى تصل الإسكندرية بالقاهرة، ومنها إلى السويس؛ لأنها من دعائم العمران والتقدم⁽¹³⁰⁾. غير أن بروس الذى عين وكيلاً وقصلاً عاماً لبريطانيا قد أيقن أن خط القاهرة الإسكندرية لن يكون ذا جدوى للنقل والمواصلات بين الهند وبريطانيا مالم يتم إنشاء خط القاهرة السويس، وبالفعل نجح فى إقناع عباس بمنح ستيفنسون عقد إنشاء ذلك الخط غير أنه قبل الانتهاء من خط الإسكندرية القاهرة، وقبل البدء فى خط القاهرة السويس اغتيل عباس ليخلفه سعيد الذى أوفى بالتزامات سلفه فى 14 يوليو 1854 م⁽¹³¹⁾.

وهكذا يمكننا القول بأن مميزات عباس تجلت فى عدم فتح أبواب مصر للتدخل الأجنبى؛ فلم يمكنهم من البلاد، ولم يمد يده للاستدانة، بل ترك خزانة مصر حرة من أثقال الديون الأجنبية التى كبلها بها خلفاؤه من بعده، وكان يجتهد دائماً فى سد عجز الميزانية بدون أن يلجأ إلى القروض، ولم يكن يميل إلى منح الأوربيين امتيازات باستثمار مرافق البلاد⁽¹³²⁾. وعلى العكس من ذلك يذكر حمروش أن عباس باشا منح الإنجليز امتياز السكك الحديدية من الإسكندرية إلى القاهرة والسويس لتسهيل تجارتهم مع الهند، وأصبحت إنجلترا هى الدولة الأولى فى التعامل التجارى مع مصر فى أواخر الأربعينيات فكان ربع الاستيراد منها وثلث الصادرات إليها، وخضع لتعليمات الإنجليز خضوعاً تاماً، واستند فى حكمه إلى كبار الإقطاعيين الذين تكونوا فى عهد

محمد على، وأضاف لهم مزيداً من الأرض⁽¹³³⁾، كما أنه مد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة⁽¹³⁴⁾. وبرغم أن عباس أنقص عدد الجيش وحوله كما كان في عهد بكوات المماليك إلى حرس خاص له ، فإن نهايته كانت على أيديهم على الرغم من أنه أعلن في بيان رسمي في يوليو 1854 م أنه مات بالسكتة القلبية⁽¹³⁵⁾. كما قيل أيضاً أن عمته الأميرة نازلى هى التى تأمرت عليه، وهى فى الأستانة، وكلفت مملوكين بقتله ونقدتهما مكافأة مالية سخية بعد قتله⁽¹³⁶⁾.

وأخيراً توقفت رسائل فاطمة الزهراء بعد وفاة عباس فى قصره بينها العسل ودفنه فى مدافن العائلة الخديوية بالقاهرة⁽¹³⁷⁾، ثم لحقت به بعد سنوات فى رجب 1274هـ/ فبراير 1858م ، ودفنت بجوار والدها عارف محمد أفندى بالأستانة⁽¹³⁸⁾.

خاتمة :-

من خلال مطالعتنا لرسائل الأميرة فاطمة الزهراء التى دأبت على كتابتها وإرسالها إلى عباس باشا استطعنا أن نستشف ما يأتى :

- اختلف عباس عن جده وعمه فى سعيه إلى هدم النفوذ الأوروبى فى مصر وتوثيق علاقته بالدولة العثمانية، وإذا كان هناك ضرورة تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن للخليفة العثمانى لا للأوربيين .

- كان يرى أن الصراع بين السلطان ووالى مصر لن يفيد سوى الأوربيين، ولن يودى إلا إلى الانهيار التام للإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر، فهى فى رأيه لا تتعدى كونها ولاية صغيرة لا إمبراطورية، كما كان عليه الحال فى عهد جده . لهذا سعى إلى قطع دابر المؤامرات السياسية وطرد الطفيليين الذين رأى أنهم استفادوا من العهد السابق.

- كان يمقت اتجاه جده إلى إحاطة نفسه ببعض الأوربيين الذين كانوا يقيمون فى مصر أو يفدون إليها بوصفهم حلقة الوصل بينها وبين العالم الخارجى. وهكذا اتجه عباس إلى العزلة وإحاطة نفسه بأتباعه المخلصين، ورفض أن يكون قصره بمثابة " المقهى الذى يفد إليه الناس الذين ليس لديهم ما يشغلهم لكى يتجادبوا أطراف الحديث " (139).

- لم تكن علاقة عباس بكبار الموظفين على ما يرام ، فقد أبعد عن الخدمة من كان يعدمهم أنصاراً لفرنسا التى ساندت جده، كما ألغى المؤسسات التى كان يديرها فرنسيون ورفض المشروعات الفرنسية خاصة القناة البحرية، وأجرى تعديلات كثيرة على إدارات الدولة دون أن يكون لديه من الخبرة السياسية أو التعقل ما يجعله يفرق بين الغث والسمين. ومن هنا كانت الأميرة فاطمة الزهراء تشير له فى رسائلها إلى الأشخاص ذوى الحيثية الذين يجب أن يحرص على مراسلتهم ويكسب رضاءهم فى الأستانة.

- ومن ثانياً رسائل الأميرة فاطمة الزهراء يمكننا وصف عباس إلى حد ما بالكرم فى حدود المعقول، فقد دفع ديون كل من الأميرة فاطمة الزهراء زوجة عمه ونوبار باشا، وقد علل عباس نفسه هذا التصرف قائلاً: " لم يكن يجب أن يكون أحد حاشيته فى حاجة إلى المال لأنه فى هذه الحالة يكون تابعاً لدائتيه لا لعباس " (140) .

- برغم أن عباس كان لا يميل إلى الأوربيين؛ فإنه اقتنع بوجهة نظر نوبار، وتفاوض مع قنصل بريطانيا العام بشأن مشروع السكك الحديدية، وأرسل نوبار باشا إلى لندن للتفاوض مع المسؤولين البريطانيين، حتى كملت جهوده بالنجاح .

- كذلك تواتر في رسائل فاطمة الزهراء ما كان يلجأ إليه الأرمن من دسائس ومؤامرات، ونصحت عباس باشا مراراً أن يأخذ حذره وحيطته منهم، فكان يكرهم في أواخر عهده . وبرغم هذا عهد إلى نوبار وأخيه استيفان بتمثيله في برلين وفيينا (141). وأطلق على الأول لقب الوزير، ويعد من وزراء مصر العظام الذين تولوا رئاسة الوزارة، وبقي في هذا المنصب حتى توفي عباس (142).
- من خلال مطالعتنا لرسائل الأميرة فاطمة الزهراء أيضاً استطعنا أن نفهم طبيعة الدور الذي كانت تقوم به السلطانة الوالدة واتصالها بشئون الملك، سواء في الداخل أو في الخارج . "وتميز حريم السلاطين في الأستانة بما ورثته عن بيزنطة من مظاهر الأبهة والعظمة " ، بعكس الحريم المصرى الذى ينتمى إلى أصل تركى ، فلا يظهر عليه شئ من مجد الفراعنة (143).
- وقد قيل إن للسلطانة الوالدة مكانة كبيرة تلى مكانة السلطان ، وأهم من مكانة رئيس الوزراء الذى يسمونه بالصدر الأعظم (144).
- كذلك تحدثت الأميرة فاطمة الزهراء كثيراً في رسائلها عن شخصية أرتين بك الذى عين ترجماناً في عهد محمد على، وغضب عليه إبراهيم، وتمنى قتله ، حينما يتولى الحكم، غير أنه قدم شئون الدولة على أغراضه الشخصية . أما عباس فقد غضب عليه ونفاه بالفعل. ولما كان يتمتع بحماية أحد القناصل الفرنسيين فى عهد محمد على فقد اصطحبه إلى إسطنبول بعيداً عن بطش عباس الذى حاول فيما بعد إحضاره واتهامه باللصوصية (145).
- لاشك في أن علاقة عباس الحميمة بالسلطان قد أفادته وأفادت ابنه إلهامى الذى تزوج من ابنة السلطان عبد المجيد 1270هـ/ 1853م الذى أعجب بذكائه إلى جانب ما حازه من العلم والمعرفة، فغمره بنعمه، وعاد إلى مصر حامداً شاكراً (146).
- وإذا كانت الأميرة فاطمة الزهراء تؤيد عباس باشا تأييداً مطلقاً في رسائلها، وتميل إلى جانبه كل الميل، وتكيل له المديح أمام السلطان والسلطانة ، فإن المراجع التى تعرضت لعصره لم تسر على المنوال نفسه، وكان لأصحابها وجهات نظر مختلفة.
- وأخيراً توفي عباس فى 1270هـ/ يوليو 1854م ، فانقطعت رسائل فاطمة الزهراء التى ما لبثت أن توفيت هى الأخرى فى رجب 1274هـ/ فبراير 1858م ، ودفنت بجانب والدها عارف محمد أفندى بالأستانة (147).

الهوامش:

- (*) ملف فاطمة الزهراء به ثلاث دوسيهات تشتمل على مراسلاتها إلى محمد على وعباس .
- (**) تولى عباس الحكم سنة 1265هـ / 27 نوفمبر 1848م ، وتوفى سنة 1270هـ / 14 يوليو 1854م ، جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ج2 ، الهلال 1925 ، ص 201 .
- (1) عبد المنعم عبد المجيد : مخصصات أسرة محمد على، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر سنة 2004، ص ص 101، 102 ؛ محمد فؤاد شكرى: بناء دولة مصر، محمد على ، تقرير باورنج ، دار الفكر العربى 1948م - ص 627 .
- (2) المرجع السابق ، ص 319 .
- (3) الرافعى : عصر محمد على ، النهضة المصرية ، ط3 ، 1951 م ، ص 616 .
- (4) عبد المنعم عبد المجيد : مرجع سابق ، ص 102 .
- (5) الرافعى : عصر إسماعيل ، ج1 ، دار المعارف ، ط3 ، 1982 م ، ص 16 .
- (6) محفظة رقم 149 أبحاث : عبر البشرى : ق. 13 ، ج1 ، صحيفة 25 .
- (7) عبد المنعم عبد المجيد : مرجع سابق، ص 169 ، أحمد حمروش: قصة ثورة يوليو، ج1، مدبولى، ط3 ، 1983م ، ص 43 .
- (8) المرجع السابق، ص 174 .
- (9) المرجع السابق، ص ص 261 ، 262 .
- (10) محمد فؤاد شكرى : تقرير دوهاميل 1837م، ص 359 .
- (11) المرجع السابق : تقرير دى بوالكننت ، ص 248 .
- (12) محمد عارف : عبر البشر فى : ق. 13 ، ج2 ، صحيفة 78 ، ص 58 .
- (*) محفظة رقم 149 أبحاث : مرفق 5، محمد عارف باشا عضو الأحكام بمصر عبر البشر فى القرن الثالث عشر ج1و ج2 ، ص 75 .
- (13) ملف الأميرة فاطمة الزهراء : محافظ أبحاث 136 ، دوسيه رقم 1 .
- (14) ملف الأميرة فاطمة الزهراء : محافظ أبحاث 136 ، دوسيه رقم 1، ومحفظة رقم 125 عابدين، ملف منقرقات، ترجمة: الوثيقة التركية المؤرخة بـ 4 ربيع الآخر سنة 1267هـ / يناير 1851 م .
- (15) ملف الأميرة فاطمة الزهراء : محافظ أبحاث 136، دوسيه رقم 1، عبد المنعم عبد المجيد ، المرجع السابق، ص ص 105، 106 .
- (16) عبد المنعم عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ص 105 ، 106 .
- (*) الأطواخ هي نياشين أو شعارات مستمدة من أصول قبلية تركية قديمة وهي ذيل حصان يعلق في سارية في أعلاها كرة من النحاس المطلى بالذهب ، وعدد الأطواخ يدل على أهمية المنصب الذى يشغله كبار رجال الدولة، فإذا منح رتبة الباشوية يحمل ثلاثة أطواخ ، أنظر: عبد العزيز الشناوى : ج1 ، ص ص 364 ، 365 .

(**) تقلد تلك الوظيفة لمهارته فى علم الحساب، فقد حرص محمد على أن يولى الوظائف المهمة للأشخاص الذين يرتبطون معه بصلة المصاهرة ليجعل لهم وضعاً مميزاً أمام المصريين بمباركة الدوائر المسنولة فى عاصمة الدولة لهم ، محفظة 1 دفتر معية تركى ، ملخصات رقم 108 ، ص 38 من محمد على إلى وكيله فى الأستانة .

- (17) الجبرتي: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ3 ، ط2، بيروت 1978 - ص 408 .
- (18) المرجع السابق ، ص ص 339 : 442 .
- (19) محفظة رقم 149 أبحاث: ترجمة كتاب عبر البشر فى القرن الثالث عشر، جـ1 ، ص 75 .
- (20) عبد المنعم عبد المجيد : مرجع سابق ، ص 107 .
- (21) محفظة رقم 17 بحر برا : ترجمة الوثيقة التركية رقم 66 بتاريخ ذى الحجة 1248هـ/ إبريل 1833م ، محفظة رقم 126 ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة 27 محرم 1268 هـ/ نوفمبر 1851م .
- (22) عبد المنعم عبد المجيد : مرجع سابق ، ص ص 105 ، 106 .
- (23) المرجع السابق : ص ص 342 ، 343 .
- (*) هى أعلى مركز فى الحريم السلطانى، وقد مارست نفوذاً واسعاً ، سواء فى القصر أو فى دوائر الحكومة، وكانت تستأثر بموضوعات تتصل بالسياسة العليا أو المسائل المهمة ذات الطابع العاجل، وتتطلب الاتصال الفورى بالمسؤولين والمسئولات أنظر: عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ 1 ، الأنجلو 1980م ، ص ص 594 ، 595 .
- (24) صوفيا لين بول : حريم محمد على باشا ، ط 2002 م ، ص 322 .
- (25) دفتر رقم 15 معية تركى: ترجمة المكاتبة التركية رقم 206 محرم 1240هـ/ 20 أغسطس 1824م من المعية إلى البك الخازن .
- (26) دفتر رقم 53 معية تركى: ترجمة المكاتبة التركية رقم 318 بتاريخ 11 صفر 1246 هـ/ أغسطس 1830م، من المعية السنوية إلى على رضا أفندى ، دفتر رقم 50 معية تركى ترجمة المكاتبة رقم 545 بتاريخ 12 صفر 1249هـ/ يوليو 1833م ، من المعية السنوية إلى حبيب أفندى .
- (27) دفتر رقم 755 خديوى تركى: ترجمة المكاتبة التركية رقم 883 جمادى الأخرى 1245هـ/ ديسمبر 1829م، من الديوان إلى باشا أغا الإسكندرية ، عبد المنعم عبد المجيد: مرجع سابق ، ص 333 .
- (28) دفتر رقم 79 ترجمة المكاتبة التركية رقم 601 بتاريخ 8 شوال 1252هـ/ يناير 1837م من المعية السنوية إلى البك الخزينة دار ، دفتر رقم 79 معية تركى ترجمة المكاتبة التركية رقم 613 بتاريخ 11 شوال 1252هـ/ يناير 1837م ، من المعية السنوية إلى البك الخزينة دار .
- (29) عبد المنعم عبد المجيد : مرجع سابق ، ص ص 333 ، 334 .
- (30) المرجع السابق ، ص 302 .
- (31) المرجع السابق ، ص 352 .
- (32) محفظة رقم 40 عابدين : ملخصات دفتر 214 رقم 435، من الجناح العالى إلى بوغوص بك 28 جمادى الأولى 1256هـ/ 28 يوليو 1840 م ، عبد المنعم عبد المجيد : مرجع سابق ، ص ص 352 ، 355 ، 375 .

- (33) المرجع السابق ، ص 107 ، 334 .
- (34) المرجع السابق ، ص 175 .
- (35) ترجمة الوثيقة رقم 92 من الدفتر رقم 12 عابدين من الجنب العالى إلى الأميرة .
- (36) محفظة رقم 125 : ترجمة وثيقة تركية مؤرخة بـ 19 جمادى الأخرى 1265هـ / 12 مايو 1849 م .
- (37) محفظة رقم 126 عابدين : ملفات متفرقات ، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 25 ذى الحجة 1265هـ / 11 نوفمبر 1849 م .
- (38) عبد المنعم عبد المجيد : مرجع سابق ، ص 334 .
- (39) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر محفظة رقم 2 معية تركى ترجمة الوثيقة رقم 379 بتاريخ 27 رجب 1270هـ / إبريل 1854م ، صورة الكتاب رقم 348 المؤرخ 22 رجب 1270هـ / إبريل 1854م ، من محافظ الإسكندرية إلى الديوان .
- (40) محفظة رقم 125 ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 19 جمادى الأخرى 1265هـ / مايو 1849 م .
- (41) محفظة رقم 17 بحريرا : وثيقة تركية رقم 81 ، 9 جمادى الأخرى 1249هـ / 25 أكتوبر 1833 م .
- (42) دفتر رقم 40 معية تركى : ترجمة المكاتب رقم 773 بتاريخ 7 رجب 1247 و 1831م ، ودفتر رقم 49 معية تركى : ترجمة المكاتب التركية رقم 676 بتاريخ 19 محرم 1250هـ / 29 مايو 1834 م .
- (43) محفظة رقم 123 عابدين : ملف متفرقات ، 21 جمادى الأولى 1265هـ / 16 إبريل 1849 م .
- (44) محفظة رقم 123 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية ، 29 ربيع الأخرى 1265هـ / 24 مارس 1849 م .
- (45) محفظة رقم 126 عابدين : متفرقات ترجمة الوثيقة التركية ، 5 صفر 1268هـ / 1 ديسمبر 1851 م .
- (46) محفظة 125 عابدين : ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 4 ربيع الآخر 1267هـ / 7 فبراير 1851م ، من كلين هاتم إلى الجنب العالى عباس حلمى الأول ، ص 1 ، 2 .
- (47) محفظة 125 عابدين : ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 17 جمادى الأولى 1267هـ / 21 مارس 1851م ، من كلين هاتم إلى عباس حلمى الأول .
- (48) المرجع السابق ، ص 2 ، 3 .
- (49) محفظة رقم 125 : المؤرخة بـ 2 جمادى الأخرى 1267هـ / 4 إبريل 1851م ، من كلين هاتم إلى الجنب العالى - ص 2
- (50) محفظة رقم 125 عابدين : 6 جمادى الأخرى 1267هـ / 8 إبريل 1851م ، ص 2 ، 3 .
- (51) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: عصر حكيان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1990 م ، ص 106 ، 107 .
- (52) محفظة رقم 125 عابدين : ملف المتفرقات ، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة فى 17 جمادى الأولى 1267هـ / 21 مارس 1851 م ، من كلين هاتم إلى الجنب العالى .
- (53) محفظة رقم 125 عابدين : ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة 6 جمادى الأخرى 1267هـ / 8 إبريل 1851م .

(*) من الغريب أن توصف الأميرة زينب بهذا البخل وهى التى كانت تحوذ كثيراً من المجوهرات الماسية التى أهداها إليها والدها فى عرسها والتى قدرت وحدها بـ 200.000 جنيه غير الحزام وقدره 40.000 جنيه والعقد 37.000 جنيه والقرط 12.000 والأساور 10 آلاف جنيه إسترليني ، كما أنعم عليها والدها فى رجب 1254هـ/ 25 أكتوبر 1838 م بمساحة قدرها 10.199 فدانا من أطيان إقليم الدهليزية التى عرفت باسم جفلك شاة ، عبد المنعم عبد المجيد :مرجع سابق ، ص 164 ، صوفيا لين بول : مرجع سابق ، ص 287 .

(54) محفظة رقم 127 عابدين : ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة التركية 15 صفر 1269هـ/ 18 نوفمبر 1852 م.

(55) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ، ج1 ، دار الموقف العربى ط2، 1981 ، ص 87 .

(56) ترجمة الوثيقة رقم 36 من دفتر رقم 13 : 27 ربيع 1265هـ / 22 مارس 1849 م .

(57) دفتر رقم 13 عابدين : ترجمة الوثيقة 68 ، 13 جمادى الأخرى 1256هـ/ 7 مايو 1849 م .

(58) محفظة رقم 127 عابدين: ملف المتفرقات، تابع الوثيقة المؤرخة بـ 5 جمادى الأولى 27، 28 رجب 1269هـ/ 8 مايو 1853 م .

(59) محفظة رقم 127 عابدين: ملف ترجمة المرفق أ ، ج، و التابعة للوثيقة المؤرخة بـ 5 جمادى الأولى 1269هـ/ 14 فبراير 1853 م .

(60) محفظة رقم 127 عابدين: ترجمة المرفق ب ، مؤرخ بـ 20 شوال 1269هـ / 27 يوليو 1853م .

(61) محفظة رقم 127 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 8 جمادى الأخرى/ 19 مارس 1853م ، 7 ربيع الآخر 1269هـ/ 18 يناير 1853 م .

(62) محفظة رقم 127 عابدين : ملف متفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 7 ربيع الآخر 1269هـ / 18 يناير 1853م ، من كلين هانم إلى الجناب العالى عباس حلمى الأول .

(63) جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ج2 ، ص 202 .

(64) محفظة رقم 127 عابدين: ملف متفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 20 شوال 1269هـ/ 27 يوليو 1853 م.

(65) محفظة رقم 127 عابدين: ملف متفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 7 ربيع الآخر 1269هـ / 18 يناير 1853 م ، من كلين هانم إلى عباس حلمى الأول .

(66) محفظة رقم 127 وارد عابدين: ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 3 جمادى الأولى 1269هـ/ 12 فبراير 1853م ، من كلين هانم إلى الجناب العالى عباس حلمى الأول .

(67) محفظة رقم 126 عابدين: ملف متفرقات ترجمة المرفق التابع للوثيقة المؤرخة بـ 16 شوال 1268هـ/ 4 أغسطس 1852 م .

(68) محفظة رقم 126 عابدين: ملف متفرقات ترجمة المرفق ب التابع للوثيقة المؤرخة بـ 16 شوال 1268هـ/ 4 أغسطس 1852 م .

(69) محفظة رقم 126 عابدين : ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة المؤرخة بـ 9 ذى الحجة 1268هـ/ 24 سبتمبر 1852 م.

- (70) محفظة رقم 126 عابدين : ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة المؤرخة بـ 3 رمضان 1268هـ/21 يونيو 1852 م .
- (71) محفظة رقم 126 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 19 رمضان 1268هـ/7 يوليو 1852 م .
- (72) محفظة رقم 126 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 17 ربيع الأول 1267هـ/20 يناير 1851 م .
- (*) كامل باشا هو زوج الأميرة زينب ياور وسكرتير محمد على الخاص، وقد أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية حينما علم أنه رشح ليكون زوجا لابنة والى مصر، وقيل إنه تولى بعد ذلك منصب الصدارة العظمى، وقد أنعم عليه محمد على ببعض العهد كهدية بمناسبة زواجه من ابنته ، انظر: صوفيا لين بول: مرجع سابق ، ص 280، عبد المنعم عبد المجيد: مرجع سابق ص ص 86 ، 142 .
- (73) محفظة رقم 126 عابدين : 13 صفر 1268هـ/ 8 ديسمبر 1851 م .
- (**) ولد عبد الحليم فى 1826 ومحمد على بك فى 1833 وإسماعيل بك فى 1830 م ، ومصطفى بك 1832م ، كلوت بك: مرجع سابق ، ص ص 87 ، 88 .
- (74) محفظة رقم 125 وارد عابدين : ترجمة الوثيقة المؤرخة بـ 5 ذى القعدة 1267/ 1 سبتمبر 1851 م .
- (*) الأمير أحمد بك ابن إبراهيم باشا البكرى ولد فى سنة 1825 م ، كلوت بك : مرجع سابق ، ص 88 .
- (75) محفظة رقم 125 عابدين: ملف المتفرقات ، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة 23 شعبان 1267 هـ/ 23 يونيو 1851 م، من الجناح العالى إلى كلين هانم .
- (76) محفظة رقم 125 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 16 رمضان 1267 هـ/15 يوليو 1851 م .
- (77) محفظة رقم 125 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 19 جمادى الأخرى 1267 هـ/21 إبريل 1851 م .
- (78) محفظة رقم 125: ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 19 جمادى الأخرى 1265هـ/ 12 مايو 1849 م .
- (79) محفظة رقم 127 عابدين : ملف المتفرقات، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 3 ربيع الأول 1269 هـ/ 15 ديسمبر 1852 م .
- (*) كلمة فارسية من مقطعين كد ، وخدا، والأولى بمعنى البيت والأخرى بمعنى الرب أى رب البيت، وتعنى نائب السيد الموقر أو الحاكم ، د. أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد فى الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف 1979م، ص 176.
- (80) محفظة رقم 125 : ترجمة وثيقة تركية مؤرخة بـ 19 جمادى الأخرى 1265 هـ/ 12 مايو 1849 م .
- (81) عبد الرحمن الرفاعى : عصر إسماعيل ، جـ 1 ، ص ص 16 ، 17 .
- (82) عبد الرحمن الرفاعى : عصر محمد على ، ص 518 .
- (**) انظر تفاصيل الاستعداد لسفرها والممتلكات التى تسلمتها من خزينة زوجها فى دفتر رقم 18معية

- تركي: ترجمة المكاتب التركية رقم 194 بتاريخ 11 رجب 1239 / مارس 1823م ، دفتر رقم 15 معية تركي رقم 206 ، 5 محرم 1240هـ / 20 أغسطس 1824م ، دفتر رقم 139 مجلس ملكية ترجمة المكاتب رقم 183 بتاريخ 3 جمادى الأخرى 1251هـ / 26 سبتمبر 1835 م ، رقم 275 بتاريخ 16 جمادى الأخرى 1251هـ / 9 أكتوبر 1835 م .
- (83) الرفاعي : عصر محمد علي، ص292، محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مكتبة الآداب، ط2 د.ت، ص235.
- (84) كلوت بك : مرجع سابق ، ص ص 74 ، 75 .
- (85) محفظة رقم 17 بحر برا : ترجمة الوثيقة التركية رقم 66 بتاريخ 3 ذى الحجة 1248هـ / 23 إبريل 1833 م .
- (86) محفظة رقم 124 عابدين: ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 29 ذى الحجة 1264هـ / 27 نوفمبر 1848 م ، 1266هـ / 1849 م .
- (87) محفظة رقم 125 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 16 شعبان 1267هـ / 12 يونيو 1851 م .
- (88) وثيقة رقم 125 : مؤرخة بـ 15 جمادى الأولى 1267هـ / 19 مارس 1851 م .
- (89) محفظة رقم 123: بتاريخ جمادى الأخرى 1265 هـ / 24 إبريل 1849 م .
- (90) ترجمة من المحفظة رقم 124: ملف متفرقات ، بتاريخ 8 ربيع الأول 1266 هـ / 23 يناير 1850 م .
- (91) ترجمة من المحفظة رقم 124عابدين: ملف متفرقات ، 14 ربيع الآخر 1266 هـ / 28 فبراير 1850 م .
- (92) ترجمة من المحفظة رقم 124عابدين: ملف متفرقات، 15 رمضان 1266 هـ / 26 يوليو 1850 م .
- (93) ترجمة المحفظة رقم 124عابدين : بتاريخ 9 ذى القعدة 1266هـ / 17 سبتمبر 1850 م .
- (94) ترجمة المحفظة رقم 124عابدين : بتاريخ 29 ذى القعدة 1266هـ / 7 أكتوبر 1850 م
- (*) لقد عرض عليه البعض تسميتها بالخاصة فرفض لأن هذه التسمية خاصة بالذات الشاهانية، وإذا أطلقنا هذا الاسم نكون قد أسأنا الأدب .
- (95) محفظة رقم 124 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية ، بتاريخ 29 ذى الحجة 1266هـ / 6 نوفمبر 1850 م .
- (96) محمد عارف : مرجع سابق ، ص 58 .
- (97) محفظة رقم 124 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية ، بتاريخ 29 ذى الحجة 1266هـ / 6 نوفمبر 1850 م .
- (98) محفظة رقم 125 : ملف المتفرقات ، الوثيقة التركية المؤرخة بـ 17 جمادى الأولى 1267هـ / 21 مارس 1851 م، من كلين هانم إلى الجناب العالي عباس حلمي الأول .
- (99) محفظة رقم 125 : مؤرخة بـ 2 جمادى الأخرى 1267هـ / 5 إبريل 1851 م ، من كلين هانم إلى الجناب العالي عباس الأول .

- (100) محفظة رقم 125: مؤرخة بـ 2 جمادى الأخرى 1267هـ / 5 إبريل 1851 م ، ص ص 1 ، 2 .
- (101) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص ص 107 ، 108 .
- (102) محفظة رقم 126 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 19 رمضان 1268هـ / 8 يوليو 1852 م .
- (103) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص ص 110 ، 111 .
- (104) (محفظة رقم 125 عابدين: ملف المتفرقات، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 17 جمادى الأولى 1267هـ / 21 مارس 1851 م ، من كلين هانم إلى الجناب العالى .
- (105) محفظة رقم 126 عابدين: ملف متفرقات ترجمة المرفق التابع للوثيقة المؤرخة بـ 16 شوال 1268هـ / 4 أغسطس 1852 م .
- (106) محفظة رقم 127 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية مؤرخة بـ 20 شوال 1269هـ / 28 يوليو 1853 م .
- (107) محفظة رقم 126 عابدين : ملف متفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 22 ذى الحجة 1268هـ / 8 أكتوبر 1852 م .
- (108) المصدر نفسه .
- (109) محفظة رقم 127 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية مؤرخة بـ 20 شوال 1269هـ / 28 يوليو 1853 م .
- (110) محفظة رقم 127 عابدين : ملف المتفرقات ، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 20 شوال 1269هـ / 28 يوليو 1853 م .
- (111) عبد الرحمن الرفاعي : عصر إسماعيل ، جـ 1 ، ص 23 .
- (112) (محفظة رقم 127 عابدين : ملف المتفرقات ، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 7 ربيع الآخر 1269هـ / 19 يناير 1853 م .
- (113) محفظة رقم 127 : ملف متفرقات، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ محرم 1269هـ / أكتوبر 1852 م .
- (114) المصدر نفسه .
- (115) محفظة رقم 127 عابدين: ملف متفرقات، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 16 صفر 1269هـ / 30 نوفمبر 1852م .
- (116) محفظة رقم 126 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 3 رمضان 1268هـ / 21 يونيو 1852 م .
- (117) محفظة رقم 127 عابدين : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 25 ذى الحجة 1268هـ / 11 أكتوبر 1852 م .
- (118) محفظة رقم 126 عابدين : ملف متفرقات ، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 25 ذى الحجة 1268هـ / 11 أكتوبر 1852 م .

- (119) محفظة رقم 126 عابدين : ملف متفرقات، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 4 ربيع الآخر 1268هـ/28 يناير 1852م .
- (120) محفظة رقم 126 عابدين : ملف متفرقات، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 22 جمادى الأولى 1268/16 مارس 1852م .
- (121) المصدر نفسه .
- (122) محفظة رقم 126 عابدين : ملف متفرقات، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 6 جمادى الأولى 1268هـ/28 فبراير 1852م .
- (123) محفظة رقم 126 عابدين : ملف متفرقات، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 22 جمادى الأولى 1268هـ/16 مارس 1852م .
- (*) صدر فى عهد هذا السلطان الأمر الهاميونى فى نوفمبر 1839م المعروف باسم خط كلخانة الخاص بالتنظيمات العثمانية ، محمد أنيس الدولة العثمانية والشرق العربى ، الأنجلو د. ت، ص 214، محمد فريد الدولة العثمانية ، ص 254 .
- (124) محفظة رقم 125 : ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 19 جمادى الأخرى 1265هـ/12 مايو 1849م .
- (125) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 102 .
- (126) د. فاطمة علم الدين : تطور النقل والمواصلات فى عهد الاحتلال البريطانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989م ، ص 42 .
- (127) المرجع السابق، ص ص 42 ، 43 .
- (128) أمين سامى : تقويم النيل المجلد الأول من الجزء الثالث، ص ص 42، 65 ، د. فاطمة علم الدين: مرجع سابق، ص 42.
- (129) الرافعى : عصر إسماعيل ، جـ1 ، ص ص 17 ، 18 .
- (130) الرافعى : عصر إسماعيل ، جـ1 ، ص ص 18 : 21 .
- (131) أمين سامى: تقويم النيل المجلد الأول من الجزء الثالث، ص ص 42، 65، د. فاطمة علم الدين: مرجع سابق، ص 42.
- (132) (الرافعى : عصر إسماعيل ، جـ1 ، ص ص 26 ، 27 .
- (133) أحمد حمروش : مرجع سابق ، ص ص 43 ، 44 .
- (134) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، جـ2 ، ص 201 ، جرجى زيدان : مشاهير الشرق فى القرن الـ 19، جـ1 بيروت ط 3 د.ت ، ص ص 57 : 59 .
- (135) أحمد حمروش : مرجع سابق ، ص 44 .
- (136) الرافعى : عصر إسماعيل ، ص 24 .
- (137) جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ص 202 .

- (138) ملف فاطمة الزهراء : محافظ أبحاث 136 ، ملف بيع كتب عليه توفيت فى عام 1274هـ .
- (139) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص ص 102 ، 103 .
- (140) المرجع السابق ، ص 104 .
- (141) المرجع السابق ، ص 109 .
- (142) جرجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق فى القرن 19 جـ 1 ، ص ص 317 ، 319 .
- (143) مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوى عباس حلمى الثانى : دار المدى للثقافة والنشر 2004 م ، ص ص 70 ، 79 .
- (144) حنفى المحلاوى : حريم ملوك مصر من محمد على إلى فاروق ، دار الأمين ، ط 1 ، 1993 م ، ص 23 .
- (145) محفظة 149 : محمد عارف باشا عضو مجلس الأحكام فى مصر ، مرجع سابق ، ص 65 .
- (146) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، جـ 2 ، ص 202 .
- (147) ملف فاطمة الزهراء : محافظ أبحاث 136 ، ملف بيع مكتوب عليه توفيت فى 1274 هـ .

مصادر البحث :

أولاً : وثائق غير منشورة :

- 1- دوسيه 1 موضوع السرايات - عدد المكاتبات 594 - محفظة رقم 127 .
- محفظة رقم 15 بحر برا ترجمة الوثيقة التركية رقم 91 سنة 1235 هـ .
- دفتر رقم 18 معية تركى - ترجمة المكاتبة التركية رقم 37 بتاريخ 8 ربيع الأول 1239 هـ .
- " " " " " " " " رقم 47 بتاريخ 15 ربيع أول 1239 هـ .
- " " " " " " " " رقم 194 بتاريخ 11 رجب 1239 هـ .
- دفتر رقم 15 " " " " " " " " رقم 206 بتاريخ 5 محرم 1240 هـ .
- دفتر رقم 755 خديوى تركى، ترجمة المكاتبة التركية رقم 83 بتاريخ 8 جمادى الأخرى 1245 هـ .
- دفتر رقم 53 معية تركى ، ترجمة المكاتبة التركية رقم 318 بتاريخ 11 صفر 1249 هـ .
- دفتر رقم 57 " " " " " " " " رقم 87 بتاريخ 10 ذى القعدة 1249 هـ .
- دفتر رقم 139 مجلس ملكية - ترجمة المكاتبة التركية رقم 183 بتاريخ 3 جمادى الأخرى 1251 هـ .
- " " " " " " " " رقم 275 بتاريخ 16 جمادى الأخرى 1251 هـ .
- " " " " " " " " رقم 79 ترجمة المكاتبة التركية رقم 601 بتاريخ 8 شوال 1252 هـ .
- " " " " " " " " معية تركى ، المكاتبة التركية رقم 613 بتاريخ 11 شوال 1252 هـ .
- 2- محفظة رقم 136 أبحاث " فاطمة الزهراء "
- محفظة رقم 7 بحر برا ، ترجمة الوثيقة التركية رقم 57 بتاريخ 5 ذى الحجة 1235 هـ .
- " رقم 17 " " " " " " " " رقم 66 بتاريخ 3 ذى الحجة 1248 هـ .
- " رقم 17 " " " " " " " " رقم 81 بتاريخ جمادى الأخرى 1249 هـ .
- دفتر رقم 40 معية تركى ، ترجمة المكاتبة التركية رقم 773 بتاريخ 7 رجب 1247 هـ .
- " " " " " " " " رقم 49 ، رقم المكاتبة 676 ، 19 محرم 1250 هـ .
- " " " " " " " " ، 167 ، بتاريخ 7 ربيع الآخر 1251 هـ .

- ترجمة الوثيقة رقم 92 من الدفتر رقم 12 عابدين ، من الجناح العالى إلى الأميرة فاطمة الزهراء .
- ترجمة الوثيقة رقم 21 من الدفتر رقم 13 عابدين ، غرة ربيع الأول سنة 1265هـ ، إرادة خديوية إلى الأميرة فاطمة الزهراء .
- ترجمة الوثيقة رقم 36 من الدفتر رقم 13 ، 27 ربيع 1265هـ .
- " " " 68 " " " 13 عابدين ، 13 جمادى الأخرى 1265هـ .
- محفظة رقم 123 عابدين ، ترجمة الوثيقة التركية 29 ربيع الآخر 1265هـ .
- " " " " ، ملفات متفرقة 21 جمادى الأولى 1265هـ .
- " " " " ، ترجمة الوثيقة التركية بتاريخ جمادى الأخرى 1265هـ .
- محفظة رقم 124 عابدين ، ترجمة الوثيقة التركية بتاريخ 29 ذى الحجة 1264هـ .
- " " " بتاريخ 8 ربيع أول ، 14 ربيع ثاني ، 15 رمضان ، 9 ذى القعدة ، 29 ذى القعدة ، 29 ذى الحجة بتاريخ 1266هـ .
- محفظة رقم 125 عابدين ، ملف المتفرقات ، ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 1256هـ ، المؤرخة بـ 4 ربيع الآخر ، 17 جمادى الأولى ، 2 ، 6 ، 19 جمادى الأخرى ، 29 رجب ، 11 شعبان ، 17 رمضان ، 5 ذى القعدة 1267هـ .
- محفظة رقم 126 ملف متفرقات ترجمة الوثيقة المؤرخة بـ 5 محرم ، 13 صفر ، 17 ربيع الأول ، 4 ربيع الآخر ، 3 ، 6 ، 22 جمادى الأولى ، 6 جمادى الأخرى ، 2 شعبان ، 19 ، 28 رمضان ، 16 شوال ، 9 ذى الحجة 1268هـ .
- محفظة رقم 126 عابدين ، ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 22 ، 25 ذى الحجة 1268هـ .
- محفظة رقم 127 عابدين ، ملف المتفرقات ترجمة الوثيقة التركية المؤرخة بـ 10 محرم ، 16 ، 11 صفر ، 3 ، 19 ربيع الأول ، 7 ربيع الآخر ، 3 جمادى الأولى 1269هـ .
- محفظة رقم 127 عابدين ، ترجمة المرفق أ ، ب ، ج المؤرخة بـ 5 جمادى الأولى ، 8 جمادى الأخرى ، 28 رجب ، 20 شوال 1269هـ .
- محفظة رقم 2 معية تركى ، ترجمة الوثيقة رقم 379 بتاريخ 27 رجب 1270هـ .
- صورة الكتاب رقم 348 المؤرخ بـ 22 رجب 1270هـ الوارد من محافظ الإسكندرية إلى الديوان .
- 3- محفظة رقم 149 أبحاث : محمد عارف باشا ، عضو الأحكام بمصر ، ترجمة الجزأين الأول والثانى من كتاب عبر البشر فى القرن الثالث عشر .

ثانياً : المراجع :

- 1- د. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف 1979م .
- 2- أحمد حمروش : قصة ثورة يوليو ، ج1 ، مدبولي ، ط 3 ، 1983م .
- 3- د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : عصر حكيان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1990م .
- 4- أمين سامي: تقويم النيل، عصر عباس حلمي الأول ومحمد سعيد باشا م1 من ج3، القاهرة 1936م
- 5- جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ج2 ، الهلال 1925م .
- 6- جرجي زيدان : مشاهير الشرق في ق 19 ج1 ، بيروت ، ط3 ، د.ت .
- 7- حنفى المحلاوى: حريم وملوك مصر، من محمد على إلى فاروق، دار الأمين، القاهرة ، ط1، 1993م.
- 8- زامباور: مستشرق ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، مطبعة جامعة فؤاد الأول 1951م، جدول مقارنة السنين الهجرية بالسنين الميلادية .
- 9- صوفيا لين بول: ترجمة عزة كرارة ، حريم محمد على ، رسائل من القاهرة 1842- 1846م ، ط1 ، 2002م .
- 10- عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد على ، مكتبة النهضة المصرية ، ط3 ، 1951م .
- 11- عبد الرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ، ج1 ، دار المعارف ، ط3 ، 1982م .
- 12- عبد المنعم عبد الرحمن عبد المجيد : مخصصات أسرة محمد على، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية 2004 م .
- 13- عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج3 ، بيروت ، ط2 ، 1978م .
- 14- د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج1 ، الأنجلو 1980م.
- 15- د. فاطمة علم الدين: تطور النقل والمواصلات الداخلية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989م .
- 16- كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ، ج1 ، دار الموقف العربى ، ط2 ، 1981م .
- 17- مذكرات الأميرة جويدان : دار المدى للثقافة والنشر مع جريدة الأهالي، العدد 218 ، 15 يونيو 2004 م .
- 18- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى 1514 : 1914م الأنجلو د.ت .
- 19- محمد فريد : الدولة العلية العثمانية ، مكتبة الآداب ، ط2 ، د.ت .

- 20- محمد فؤاد شكرى : بناء مصر، دولة محمد على ، دار الفكر العربى ، 1948م .
- 21- محمد مختار بك : مأمور الخاصة الخديوية ، التوفيقات الإلهامية بمقارنة التواريخ الهجرية بالسنيين الإفرنجية ، المطبعة الأميرية ، بولاق مصر المحمية ، ط 1311هـ .
- 22- هيلين ريفلن : الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ومصطفى الحسينى: دار المعارف 1968م.